الفصل الثالث

الأقباط
وثورة ١٩١٩م

obeikandl.com

obeikandl.com

هذه هى السلسلة الثالثة من الدراسات عن ثورة سنة ١٩١٩م ، أخصصها هذه المرة لموضوع الأقباط ونصيبهم فى هذه الثورة المجيدة .

ولست أزعم أننى أكشف هنا النقاب عن ذلك الدور ، فهو واضح للعيان ولا يحتاج من مثلى إلى بيان . ولكنه يحتاج إلى تجميع المعلومات عنه بعضها إلى جانب بعض فى صعيد واحد ، حتى يأخذ المؤرخ فكرة متكاملة بعض الشىء ، عن الدور العظيم الذى قام به الجناح الثانى لشعب مصر ـ الأقباط ـ فى ثورة سنة ١٩١٩م ، وما أبداه رجاله من بسالة وإخلاص وصدق نظر وحب لمصر عميق.

وأصارح القارئ بأنى تعبت فى إعداد هذه الدراسة بالذات أضعاف ما تجشَّمت فى غيرها من الدراسات ، فإن المعلومات عن أبطال ثورة ١٩١٩م من الأقباط قليلة ومتناثرة، وإخواننا الأقباط يبدو أن التواضع يغلبهم فلا يكتبون عن أنفسهم ، مع أن ذلك واجب قومى ، فنحن بحاجة إلى أن نعرف الكثير عن سينوت حنا وويصا واصف ومكرم عبيد وغيرهم ، ممن كان لهم النصيب الكبير فى هذه الثورة .

وإنه لمن الغريب أننى لم أجد عند أحد ممن اتصلت بهم من إخوانى الأقباط معلومات وافية ، بل إن قلة معلومات بعضهم كانت تثير العجب فى نفسى ، ولهذا فإننى أرجو القارئ أن يصفح عما عسى أن يصادف من خطأ أو قصور وقعت فيه فإن الذنب ليس ذنبى فى معظم الحالات ، وما أنا إلا مؤرخ ، والمؤرخ لا يستطيع أن يكتب إلا على قدر ما تساعفه به مراجعه ، وهو لا يستطيع أن يبتكر أو يخترع ، بل لا تسمح له قواعد علم التاريخ أن يستنتج إلا بالقدر الذى تأذن له فيه المراجع التى بين يديه.

لهذا فإننى أرجو القارئ أن يعتبر هذه الصفحات مجرد مقدمة ، أو مجرد فتح لباب البحث فى هذا الموضوع ، وأن يستجيب لرجائى ويتحمس وينهض ليكتب ما لديه لو كان لديه شىء يكتبه ، فإننا فى أشد الحاجة إلى ما عنده وإنْ تصوَّر هو أنها معلومات متواضعة .

وأرجو كذلك أن يعتبرها تحية لأقباط مصر ، من مؤرخ مصرى أحب مصر وكل من فيها وكل ما فيها بكل قلبه ووجدانه . والله يعلم أننى ما أقدمت على هذه الدراسات إلا بدافع الحب لمصر ، والرغبة فى خدمة تاريخها ، ولو بالقدر اليسير الذى تيسَّر لى ..

١

معاً خرجنا من الظلمات إلى النور

• الدين لله والوطن للجميع:

أغسطس ١٩٥٦ م ..

أزمة القناة على أشدها ..

مضت أسابيع قليلة على تأميم القناة . الغضب يغلى فى الغرب كله ، ورياح الحرب والعدوان تهبٍّ من بعيد ، ومن قريب أيضاً ..

الأنظار كلها متجهة نحو زعيم مصر الباسل الذى انتزع حق بلاده من بين فكَّى الأسد ..

ونحن فى المؤتمر الصحفى الضخم الذى عقده بطل المعركة جمال عبد الناصر فى دار الأوبرا بالقاهرة ..

نحو أربعمائة صحفى من شتَّى نواحى العالم ، جاءوا ليسمعوا صوت الرجل الذى هزَّ الدنيا ..

وأخذت مكانى بين المترجمين فى سكرتارية المؤتمر ، لأترجم عن نفر من الصحفيين أتوا من أمريكا اللاتينية ، كانوا أربعة من المكسيك وكوبا وفنزويلا والأرجنتين ..

وتبيَّنت أنهم جميعاً يعرفون الإنجليزية ، وأنهم يفضِّلون توجيه أسئلتهم بها ، وهكذا أعفونى من العمل ، وتركوا لى فرصة متابعة النقاش فى المؤتمر ، وأنا على ثلاثة أمتار من عبد الناصر ..

أذكر أن المؤتمر دام ما بين ثلاث ساعات أو أربع .. معركة حامية .. جلس فيها ذلك البطل الشاب يجيب عن وابل من الأسئلة فى ذكاء وسرعة وحماسة وحضور ذهن ، وبلاغة أيضاً ..

وانتهى المؤتمر ، واندفع الصحفيون نحو عبد الناصر ليصافحوه ويروه عن قرب ..

obeikandl.com

وأبرقت مصابيح المصوِّرين ..

واندفعت معهم ، ومعى الصحفى الفنزويلى ..

وابتسم الرئيس لهذا الشاب الذى أراد أن يعانقه ، فتشجَّع الشاب وقال:

ـ عندى سؤال يا سيدى الرئيس ، ولكنى أخشى أن يكون خارجاً عن موضوع أزمة القنال..

ـ اسأل عما تريد..

ـ هل صحيح أنكم أمرتم ببناء كنيسة ؟..

فنظر إليه الرئيس ملياً ثم سأله فى ذكاء :

ـ هذا السؤال من عندك ؟.. أقصد : لماذا تسأل ؟..

ـ إنه ليس من عندى .. إنه ضمن الأسئلة التى طلبت منى جريدتى «لاناثيون» (أى : الأمة) أن أوجِّهها إلى سيادتكم .. (وقرأ من ورقة) : هل أمر الرئيس عبد الناصر ببناء كنيسة ؟..

فابتسم الرئيس وقال :

ـ كنيسة واحدة ؟.. ولماذا واحدة فقط ؟.. هذا بلد المصريين : مسلمين ومسيحيين ، من مئات السنين ؛ والدولة ليس لها أن تصرِّح أو لا تصرِّح ببناء مساجد أو كنائس .. من يُرد أن يبنى مسجداً فليبنِ مسجداً ، ومن يُرد أن يبنى كنيسة فليبنِ كنيسة .. فالمسجد مصرى والكنيسة مصرية .. نحن نقول : الدين لله والوطن للجميع .. هذا أحد شعاراتنا .. ألم تقرأ هذا الشعار ؟..

ـ تقصدون أن سياستكم الدينية تقوم على المساواة بين المسلمين والمسيحيين ؟

ـ ليست لنا سياسة «دينية » .. سياستنا «مصرية» ، وهذا يكفى .. وأعداؤنا الذين يهددون بإعلان الحرب علينا إنما يهددوننا جميعاً : مسلمين ومسيحيين .. والعرب الذين طردهم الإسرائيليون من بلادهم مسلمون ومسيحيون .. هل يكفيك هذا الرد ؟..

ـ كل الكفاية ..أشكركم جداً ..

وانصرف الرئيس عنه ..

وأخذ الصحفى يكتب فى سرعة كل حرف قاله الرئيس.

وتقدَّم منه أحد موظفى الاستعلامات قائلاً إنه مستعد لإعطائه بيانات أكثر ، فقال الشاب :

ـ شكراً .. هذا يكفى .

***

ذكرت هذا الحديث وأنا أقرأ كتاب «قدرى قلعجى» عن سعد زغلول وأقف فيه عند العبارة التالية : «وكان سعد أول رئيس وزارة اختار«أفندية» ليكونوا وزراء معه ، وأول رئيس اختار اثنين من الأقباط ليكونا وزيرين فى وزارته »..

ولـمَّا قيل له : إن التقاليد قد جرت بأن يكون فى الوزارة قبطى واحد ، قال: «هذه وزارة الثورة ، وعندما كان الإنجليز يطلقون علينا الرصاص لم يراعوا نسبة الأقباط إلى المسلمين ، وعندما كانوا ينفوننا إلى سيشل لم يراعوا هذه النسبة ، فقد كنا أربعة مسلمين واثنين من الأقباط ، وعندما حكموا على أعضاء الوفد بالإعدام لم يراعوا النسبة أيضاً ، فقد كانوا ثلاثة أقباط وأربعة مسلمين ..».

شىء يستوقف النظر : عبد الناصر وسعد زغلول يتكلمان بلسان واحد..

قال عبد الناصر : «وأعداؤنا الذين يهددون بإعلان الحرب علينا إنما يهددوننا جميعاً : مسلمين ومسيحيين ، والعرب الذين طردهم اليهود من بلادهم مسلمون ومسيحيون.»..

حقاً ، إن قادة التحرير فى مصر يتكلمون بلسان واحد .. لأنهم يعرفون حقيقة بلادهم أكثر من غيرهم .. وهم لا يتكلَّفون هذا الكلام .. إنه يصدر من أعماقهم من تلقاء نفسه .. والمصرى الصادق الذى يعرف مصر ويحب مصر لا يفكر كمسلم أو كقبطى .. بل كمصرى ، وهذا ـ بالضبط ـ هو ما قاله عبد الناصر فى أول كلامه مع ذلك الصحفى من فنزويلا..

والأقباط يقولونه قبل المسلمين .. لأنهم يعرفون أن من يتكلم بلسان غير هذا لا يمكن أن يكون قبطياً مخلصاً ..

وذكرت هذا الحديث مرة أخرى وأنا أقرأ الكتاب الممتع الذى كتبه محمد سيد كيلانى عن « الأدب القبطى قديماً وحديثاً » ، وهو كتاب قيِّم أفدت منه أعظم الفائدة فى إعداد هذه الدراسات .

•العبرة من قصة رجل ضل الطريق:

وقبل ١٧٥ سنة ـ عندما كانت مصر لا تزال فى ظلامات العصور الوسطى ، وبالكاد تفتح عينيها على نور النهضة ـ وقف أقباط مصر صفاً واحداً أمام رجل مسكين خدعه الفرنسيون عندما غزوا مصر سنة ١٧٩٨م..

ذلك كان المعلِّم يعقوب أو الجنرال يعقوب ..

لقد خدعه ضابط فرنسى يسمى لاسكاريس ـ ويلقَّب بالفارس ـ فأوهمه بأن ينضم إلى الفرنسيين ، وينشئ فرقة من الجنود الأقباط تكون جزءاً من الجيش الفرنسى ، وبهذه الفرقة يستطيع أن يحكم مصر بتأييد من فرنسا .

وفعلاً أنشأ يعقوب فرقته ، ولكن لم ينضم إليه من الأقباط إلا عدد قليل جداً ، فاستكمل تكوينها من المالطيين والأرمن والقبارصة والأروام ومن إليهم ..

ويسخر الجبرتى من المعلِّم يعقوب سخرية قاسية ..

وكذلك يسخر منه الفرنسيون أيضاً ويسمُّونه الجنرال يعقوب ، مع أن المسكين لم يحصل إلا على رتبة « صول » فى أيام كليبر ..

وكان يسمِّى نفسه « صارى عسكر القبطة » أى : قائدهم الأعلى ..

وتبرَّأ منه سائر الأقباط ، ولعنه البطرك وكبار رجال الكنيسة ..

فما كان من هذا الضال إلا أن اقتحم الكنيسة بحصانه شاهراً سيفه ..

وسار فى طريق الغواية ، فعاشر امرأة دون زواج ، وجعل يسير معها فى الطريق ، فرماه الأقباط بالحجارة ، واضطروه إلى الخروج من الفجَّالة ، فسكن فى بيت عند الأزبكية ..

وعندما خرج الفرنسيون من مصر ، ذهب معهم ..

وفى فرنسا عاش منبوذاً وحيداً .. ومات فى مرسيليا فقيراً محروماً ..

وعاد الصفاء ـ كما كان ـ بين أهل مصر جميعاً .. لأن الصفاء لابد أن يسود بين أهل مصر ، لكى تستطيع مصر أن تسير فى طريقها الذى رسمه الله لها ..

وفى هذا العالم ، مصر هى البلد الوحيد الذى لا يعرف تاريخه الفتن الطائفية . لم

تثر فيها الفتنة مرة واحدة : إذا بدت لها طلائع من ناحية المسلمين سارع المسلمون أنفسهم إلى إطفائها ، وإذا بدت من ناحية الأقباط سارع الأقباط أنفسهم إلى إخمادها ..

وما هذه بتصورات ولا أمانى خادعة ، وأمامك تاريخ مصر فاقرأ فيه كما تشاء ، وائتنى ـ إن وجدت ـ بفتنة واحدة يحسب لها حساب ..

واقرأ فى هذا الكتاب المبدع الذى كتبه الدكتور جمال حمدان عن «شخصية مصر» لتعرف أن مصر نسيج واحد : سَدَاه مسلمون ولُحْمته أقباط ..

• تاريخ ناصع لا تشوبه طائفية :

ولكى يزداد إحساسك بهذه النعمة ، انظر فى تواريخ الأمم الأخرى تجدها غارقة فى الفتن الطائفية..

فى ألمانيا : لديك الفتنة البروتستانتية التى قسمت البلد طائفتين ، إلى يومنا هذا ..

وفى فرنسا : عندك فتنة الكاثوليك والهوجونو- وهم بروتستانت فرنسا ـ وهى فتنة طويلة حافلة بالدماء ..

وفى انجلترا : لديك فتنة الرومان الكاثوليك والأنجليكان ، وفتن الكويكرز ، وعشرات الفتن الدينية الأخرى مما لا نزال نقرأ أخبارها إلى اليوم ..

وفى إسبانيا: هناك حروب الإسلام والنصرانية ، وما أعقبها من مآسى ديوان التحقيق وفظائعه ، وما أدى إليه ذلك من انهيار إسبانيا بضعة قرون ..

وفى الهند : أنت تعرف المأساة الطويلة التى نتج عنها تقسيم الهند إلى دولتين ثم إلى ثلاث ، والهند ـ فى الحقيقة ـ ميدان حروب دينية لا تنتهى ..

وفى مصر؟..

ولا مرة واحدة..

نعمة .. لا ينكرها إلا جاهل بحقيقة مصر ، أو لا يحبها ..

فأما الجاهل بحقيقة مصر فمثاله بعض سلاطين المماليك الذين صوَّر لهم جهلهم أن يمدُّوا يد الأذى إلى الأقباط ..

وأذى المماليك ـ على أى حال ـ امتد إلى الجميع : مسلمين وغير مسلمين .. وهم لم

يحبُّوا مصر أبداً..

وأما الذى لا يحب مصر ، فمثاله ذلك المعلِّم يعقوب ، أو الجنرال يعقوب ..

وهؤلاء جميعاً ذهبوا إلى خالقهم ليحاسبهم على ما فعلوا..

وبقى دائماً على أرض مصر الطيِّبة الصالحون من أهلها ؛ الصالحون من المسلمين والصالحون من الأقباط ..

هؤلاء ـ معاً ، يداً واحدة ـ نهضوا بثورة ١٩١٩م ..

وهؤلاء ـ معاً ، يداً واحدة أيضاً ـ نهضوا بثورة يوليو ١٩٥٢م التى جعلت رمزها : الدين لله والوطن للجميع..

وهؤلاء ـ معاً ـ ردَّدوا قول شوقى ، ذلك الملهم الذى أحسَّ نبض قلب مصر وجرى شعره على وقع هذا النبض :

أَعَهِدْتَنَا وَالقِبْطَ إِلاَّ أُمَّةً ... لِلأَرْضِ وَاحِدَةً تَرومُ مَرَامَا

نُعْلِى تَعَالِيمَ المَسِيحِ لأَجْلِهِمْ ... وَيُوَقِّرُونَ لِأَجْلِنَا الإِسْلاَمَا

الدِّينُ لِلدَّيَّانِ جَلَّ جَلاَلُهُ ... لَوْ شَاءَ رَبُّكَ وَحَّدَ الأَقْوَامَا

● **وسنلمس الدليل من الماضى القريب:**

ولنعدْ إلى الوراء قليلاً.. لنقلِّب معاً صفحات ثورة ١٩١٩م لنرى كيف وقفنا ـ معاً ، صفاً واحداً ـ أمام المحتل الغاصب ، فزعزعنا أركان الاحتلال والاستعمار ، وفتحنا لبلادنا أبواب الحرية واسعة..

ولو لم نقف معاً فى ذلك الاتحاد المقدس ، لما تزعزع استعمار ولا زال احتلال ، ولكنا ـ إلى اليوم ـ أسرى فى الأغلال ..

ومهما تصوَّرنا قوة إسرائيل ـ عدو الإسلام والنصرانية معاً ـ فهى لا تقاس إلى جزء من قوة بريطانيا سنة ١٩١٩م ، تلك المنتصرة الشامخة بأنفها التى كانت تسود الدنيا حقيقة لا مجازاً ..

وإسرائيل التى تسعى لإثارة الفتنة بيننا اليوم ـ لن تنجح فى ذلك قط ، وسيهزمها اتحادنا كما هزم بريطانيا وهى أقوى منها مئات المرات..

وبين الإسرائيليين من الحزازات والخصومات والطائفيات ما يفوق ما يوجد فى أى أمة على وجه الأرض ..

ولو تُرِكَ بعضهم لبعض لافترس بعضهم بعضاً ..

ولكنهم فى مواجهتنا يتَّحدون ..

واتحادهم هو الذى يجعل منهم هذا الشبح الماثل ..

كما كان اتحادنا سنة ١٩١٩م ذلك الصرح الهائل ..

فهل يتَّحدون ونختلف ؟..

وهل يدوسون أحقادهم ونجعل نحن خلافاتنا تدوسنا ؟..

اللهمَّ لو فعلنا لما استحققنا نسمة من هواء مصر ، ولا شربة من مائها ، ولا قبضة من ترابها ..

وإسرائيل ـ إذا تمكَّنت ـ فهى لن تُبقى على مسلم ولا نصرانى ..

وأمامك ما يصنعون فى القدس وفى كل فلسطين ..

والقرى التى يُنزلون بأهلها المذابح كل يوم ، يعيش فيها نصارى ومسلمون ..

وأمريكا ـ التى يقولون إنها نصرانية ـ لا تستطيع حيال اليهود شيئاً . بل إن إسرائيل تستخدمها لإشاعة الفتنة بيننا ، و« صوت أمريكا » و« بريد أمريكا » هما اللذان يحملان إلى أرضنا بذور الفتنة العمياء ..

وكما قال سعد : إن رصاص الإنجليز لم يفرِّق بين قبطى ومسلم ، فإن نار اليهود والأمريكيين لا تُبقى على مسلم ولا نصرانى ، وهى تهدم الجامع والكنيسة معاً..

ولن يُجدى يومها ندم ولا عَضُّ بَنَان ..

لأن المخدوع لن يعيش حتى يندم ..

والخاطئ من النصارى لن يجد يومها السيدة العذراء يجثو أمامها لطلب الغفران ..

والمذنب من المسلمين لن يجد الجامع يطلب فيه من الله التوبة .

افتحوا عيونكم أيها الناس ، واذكروا قول شوقى أيضاً :

يا قومُ ، بانَ الرُّشْدُ فَانْسَوا ما جَرَى — وخُذُوا الحَقيقَةَ وانبِذُوا الأوهامَا
هَذِى رُبُوعُكُمُ ، وتلكَ رُبوعنا — مُتَقَابِلِينَ تُعالِجُ الأَيَّامَا
هَذِى قُبُوركم ، وتلكَ قُبورنا — متجاورينَ جَمَاجِماً وعِظَامَا
فَبِحُرْمَةِ المَوْتَى وَوَاجِبِ حقِّهِم — عِيشوا - كما يَقضى الجِوَارُ - كِرَامَا

• الإنجليز يشعلون نار الفتنة :

ومتى قال شوقى ذلك ؟..

فى فترة حالكة السواد قبيل ثورة ١٩١٩م..

كانت تلك هى الأيام العصيبة التى ساد مصر فيها ثلاثة من عتاة الاستعماريين : إيفلين بيرنج المعروف باسم اللورد كرومر ، ثم إلدون جورست ، وأخيراً هوراشيو كتشنر ..

فأما كرومر فكان يؤمن إيماناً عميقاً بأن الإنسانية هرم قمته الإنجليز ، ثم تتدرج تحتهم الأمم حتى تصل إلى القاعدة أسفل الجميع ، وتتكون من العرب والمصريين والهنود والسود وبقية أهل الأرض ..

وكان يحكم مصر ، ويعامل المصريين جميعاً ، على هذا الأساس ..

وكان من رأيه أن أى وزير مصرى ينبغى أن يسير بحسب ما يُملى عليه أصغر موظف بريطانى فى وزارته ، وكان الذى رسم له هذه السياسة هو اللورد دوفرين Duf-frin قنصل انجلترا العام فى الآستانة ، وكان فى ذلك الحين المخطِّط الأكبر لسياسة بريطانيا فى عالم العرب ..

وكان كلاهما يستند فى تفكيره إلى تقرير مشهور كتبه السير جون بوارنج Sir John Bowering رسم فيه صورة قاتمة لمصر والمصريين ، واتخذه رجال الإدارة البريطانية دستوراً ثابتاً ..

نصح دوفرين الإنجليز بالاعتماد على الأقباط فى حكم مصر . وهو لم يقل ذلك حباً فى الأقباط ، بل حباً فى بريطانيا وحدها . وكما نفر المصريون من كلام دوفرين وسياسة تلاميذه ، أنكرهما الأقباط . ولم يسر فى الخط الإنجليزى إلا رجال قلائل ، منهم بطرس غالى باشا ..

ولم يتحمس لبطرس غالى أحد من عقلاء الأقباط ..

واجتهد الإنجليز فى أن يتخذوا من ذلك الرجل شجاً فى حلق مصر كلها..

ثم جاءت حادثة دنشواى قرب شبين الكوم فى المنوفية ..

وأمر اللورد كرومر بأن يكون رئيس المحكمة التى تصدر أحكام الإعدام على تعساء دنشواى هو ـ بالذات !ـ بطرس غالى باشا ، وكان إذ ذاك وزيراً للعدل ..

وصدرت الأحكام ، ونُفِّذَ الإعدام فى أربعة من المتهمين فى دنشواى نفسها ، وعلى مرأى من أهليهم ..

صدرت الأحكام فى ٢٧ يونيو ١٩٠٦م ، وتم تنفيذها فى ٢٨ منه ..

ومن الواضح أن كرومر أراد أن يجعل من مأساة دنشواى شرارة تشعل النار بين مسلمى مصر وأقباطها ..

وحدث ذلك بالفعل.. فقد تولَّى الهجوم على انجلترا مصطفى كامل فى « اللواء » وعلى يوسف فى « المؤيد » ..

وإذا كان مصطفى كامل وطنياً مصرياً قبل كل شىء ، فإن على يوسف كان شيخاً قبل كل شىء ..

وبينما اقتصر هجوم «اللواء» على الإنجليز ، تضمَّنت مقالات «المؤيد» هجوماً على بطرس غالى القبطى وسياسة كرومر حيال الأقباط ..

• ووقع فى الشرك بعض المخدوعين :

وأخذ الإنجليز يؤجِّجون النيران بين الأشقاء . وأفلحت سياستهم مع الشيخ على يوسف ، وكان بينه وبين بطرس غالى عداء قديم ، منذ نبش بطرس غالى عن قانون قديم صدر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١م ، وطبَّقه على الشيخ فى تهمة وجهت إليه فى ٢٥ مارس ١٩٠٩م..

وهنا نجد «المؤيد» تهاجم بطرس غالى وأمثاله فى عنف شديد..

ومن سوء الحظ أن رياسة تحرير «اللواء» صارت فى يونيو ١٩٠٩م إلى الشيخ عبد العزيز جاويش .

وكان الشيخ جاويش رجلاً عاطفياً بالغ العنف ، كان من أولئك الذين إذا غضبوا وأمسكوا القلم نسوا كل شىء ، وهان عليهم إشعال نار تحرق الوطن كله ليشفى غليلاً عارضاً ..

وما كاد يتولَّى رئاسة تحرير «اللواء» حتى ركب أعلى خيله واندفع يجول فى مخزن الخزف ، يكسِّر ويحطِّم دون أن يدرى ما هو فاعل : أخذ يهاجم الأقباط !

ونفر من كلامه عقلاء المسلمين ، وأنكروا تلك المقالات العمياء التى كتبها تحت عنوان « الإسلام غريب فى وطنه »..

وكان المعتمد البريطانى إذ ذاك هو إلدون جورست Eldon Gorst الذى خلف اللورد كرومر .. فأوعز إلى محررى الجريدتين القبطيتين ـ « الوطن » التى تأسست سنة ١٨٧٧م ، و« مصر » التى تأسست سنة ١٨٩٥م ـ بأن يردوا على عبد العزيز جاويش ..

وبلغ العدو الإنجليزى ما كان يتمنى ..

• ثم تبين الأشقاء أن العدو يدفعهم معاً إلى الهاوية :

لقد أخذ الأخ بخناق أخيه ..

ووقف العدو الإنجليزى المنتصر يتفرج ويفرك يديه شماتة وحقداً ..

وبلغ الأمر أنْ عُقد مؤتمر قبطى عام فى أسيوط فيما بين ٥ و ٨ مارس ١٩١٠م برياسة بشرى حنا بك ـ وكان من أغنى الأقباط وأوسعهم نفوذاً ـ وهو أخو سينوت حنا الذى سنراه فى طليعة المجاهدين فى سبيل مصر ـ بعد قليل ـ جنباً إلى جنب مع سعد زغلول ..

وعقد نفر من المسلمين مؤتمراً مقابلاً ..

ولكن روح الاعتدال غلبت فى هذا المؤتمر ، فقد تقدَّم المؤتمرون إلى مصطفى رياض باشا يطلبون عقد مؤتمر قومى مصرى عام للمصالحة بين الأشقاء.

وعُقد ذلك المؤتمر فى هليوبوليس فى المدة من ٢٩ أبريل إلى٤ مايو ١٩١١م.

وعندما التقى الأشقاء تبيَّنوا الهوَّة التى حفرها المستعمر تحت أقدامهم..

وفى أثناء الحوار والأخذ والرد تبيَّن الجانبان أن لا شىء بينهما غير الإنجليز ، وأن أحداً منهما لا يكسب من الخصومة شيئاً . وإنما العدو وحده هو المستفيد..

وفى هذا المؤتمر حضر شباب من المسلمين والأقباط ، وأنكروا ما رأوا من أحقاد الشيوخ وما كادت تؤدى إليه من كوارث ..

من بين أولئك الشباب من الأقباط كان سينوت حنا وويصا واصف وجورج خياط وواصف غالى ونجيب إسكندر ، وغيرهم ممن سيكونون ـ بعد قليل ـ فى طليعة النضال فى سبيل مصر ..

وحضره أيضاً شباب من المسلمين سنراهم بعد قليل فى صفوف سعد زغلول ..

على الجميع أشرقت شمس مصر ، وتمنَّوا ـ من قرارة قلوبهم ـ اليوم الذى يقفون فيه صفاً واحداً للدفاع عن أعز شىء فى الوجود : مصر ، أم المسلمين وأم الأقباط معاً ..

وعندما انتقل إلى الدار الأخرى أبطال المعركة الأسيفة بين الأشقاء : على يوسف ومصطفى كامل والشيخ جاويش وبطرس غالى ومن إليهم ، انفتح الطريق للعمل الجديد ، لأن الشباب من الجانبين تقدَّم الصفوف .. والشباب ـ بطبعه ـ طاهر لا يعرف الأحقاد ..

حكى لى المرحوم الدكتور جورجى صبحى ـ وكان طبيباً عظيماً ووطنياً جليلاً ـ خبراً لطيفاً يستحق أن يسجَّل هنا..

كان جورجى صبحى من هواة تاريخ مصر القديمة ، وكان يحسن اللغة القبطية ويقرأ الهيروغليفية ، وفى معهد الآثار المصرية القديمة كان يلقى علينا دروساً كنا نحضرها ونحن طلاب فى الجامعة ..

وربطتنى به هواية تاريخ مصر بصداقة حميمة ..

سألته ذات ليلة ونحن منصرفون من «معهد الآثار» فى طريقنا إلى «ميدان التحرير» :

ـ هل صحيح أن بشرى حنا شقيق سينوت حنا ؟

ـ نعم . كان بشرى هو الأخ الأكبر ، وكان غير راضٍ عن الاتجاه الوطنى المتطرف الذى سار فيه سينوت..

وقد عاتب بشرى أخاه سينوت الذى كان شديد الحماس لمؤتمر مصالحة المسلمين والأقباط الذى عُقد فى هليوبوليس ..

وكان بشرى يخاف على مركز العائلة وثروتها من الاتجاه الوطنى المتطرف ، فقال لأخيه يوماً :

ـ إذا أصررت على سلوك هذا السبيل فستسجن وتعذَّب ، وربما نفوك من البلد كما نفوا عرابى وطلبة وعبد العال حلمى ..

فقال سينوت ، وكان شاباً حيياً بالغ الأدب :

ـ يا أخى بشرى لا تخف علىَّ . إننى أسعى فى الحصول على استقلال مصر وإخراج الإنجليز منها ، لأن هذا هو الضمان الوحيد لسلامتنا جميعاً : أقباطاً ومسلمين . أنت تظن أن الإنجليز يحرسون أموالنا ويحمون حقوقنا نحن الأقباط .. هذا خطأ . إنهم لا يحمون إلا أنفسهم ، وها أنت ذا تراهم يستكثرون من نصارى الشوام ويعتمدون عليهم من دوننا ، وانظر عنايتهم بالأروام (اليونان) والأرمن والمالطيين! أنت تعرف أن الحكومة الإنجليزية هى التى بنت من مالها كنيسة الروم وكنيسة الأرمن فى القاهرة ، وهم يموِّلون الآن المستشفى الإسرائيلى .. فهل ساهموا بقرش فى بناء كنيسة قبطية ؟ إنهم يا أخى أعداء المصريين جميعاً ، وأماننا الوحيد هو أن نظل متَّحدين مع إخواننا المسلمين ، فنحن وهم دائمون فى هذا البلد وما عدانا زائل .. هذا هو الأمان الوحيد لى ولك ولأموالك التى تخاف عليها ..».

إننى أذكر هذه العبارة بحروفها ، لأننى دوَّنتها بمجرد عودتى إلى البيت..

وأعود إلى كلام جورجى صبحى :

«..وبعد ذلك بسنوات ، وبعد أن اجتمعت كلمة الأمة واتحد المسلمون والأقباط تحت زعامة سعد ، وبدأت دعائم الاحتلال تتزعزع ، وأصبح سينوت إلى جانب سعد وأصحابه من رجال مصر وأبطالها ، وصل بشرى ذات يوم إلى الفيوم فى زيارة عمل فوجد مظاهرة فى انتظاره ؛ وحمله الناس على أكتافهم ، لمجرد أنه أخو سينوت ..» ..

وعندما التقى بأخيه بعد ذلك بأيام قال له :

ـ كنت أنت على حق يا أخى .. لا تتصور كيف يستقبلنى الناس الآن عندما أصل إلى الفيوم .. قبل ذلك ، وفى أيام الأزمة بيننا وبين إخواننا ، كنت أطلب من الحكمدار أن يرسل معى جندياً ، وينبه على «العُمَد» بضرورة حراستى .. مضى ذلك والحمد لله..».

• وزالت الغشاوة عن العيون :

وهذا التطور الحاسم فى تفكير رجل مثل بشرى حنا يصوِّر لنا ـ بصورة عامة ـ التطور العام فى التفكير وأساليب العمل الذى شمل مصر كلها نتيجة لتغيُّر شامل فى المنظر السياسى الدولى العام ..

فقد كانت دوافع هذه العصبية الدينية عند المسلمين والأقباط راجعة إلى أن كلاً من الفريقين كان يظن أن له خارج مصر ظهراً يحميه ..

كنا ـ جميعاً ـ نعانى من تلك الطفولة السياسية التى سادت تصرفاتنا ، منذ أن تبدَّت طلائع الوعى السياسى ، فى أثناء السنوات السوداء أواخر عصر إسماعيل وما تلاه من سنوات حالكة ..

كان المسلمون يتصورون أن وراءهم الدولة العثمانية بهيبتها وجلالها..

كان فى ذهن مصطفى كامل ومحمد فريد وعلى يوسف ذلك الحلم الخادع الذى يسمى «دولة آل عثمان» ..

كانت مقالات «اللواء» تصرُّ فى سذاجة غريبة على أن حلم الدولة العثمانية حقيقة . كان هناك من يتصورون ـ لا أدرى لماذا ـ أن مفتاح الموقف كله ما زال فى يد خليفة آل عثمان المهيب الرابض كالأسد ـ وأىّ أسد ! ـ وراء بحر مرمرة على ضفاف البوسفور..

وكان الشيخ على يوسف يدير لعبته ـ التى يتجلى فيها مكر صبىٍّ يلهو ـ وقلبه معلَّق دائماً بدولة الخلافة الجليلة ، وإن كان إخلاصه الحقيقى أكثر من مشكوك فيه ..

ولم يكن هناك مفكر عاقل يرى الأمور على حقيقتها إلا محمد عبده ، ذلك الشيخ الذى سار فى أوحال ذلك العصر دون أن يسقط فيها ، بفضل ما ملأ قلبه من إيمان

عميق بالإسلام الصحيح ، وما ملأ ذهنه من علم واسع ، ثم ما حمل فى نفسه من حكمة فلاَّح مصرى أصيل ، ولد فى الظلام الحالك سنة ١٨٤٩م ، وخرج إلى الدنيا من بطن الريف قرب طنطا ، وسار فى حذر تقود خطواته تجارب آلاف السنين ..

هذا الرجل لم يخدعه حلم الدولة العليَّة ، ولا أرهبه خبث الخديو ورجال القصر ، ولا أخطأ فى فهم الإنجليز وما يعنيه احتلالهم لمصر ..

ولكن لم يأخذ عنه هذه الحكمة أحد من تلاميذه الشيوخ : لا عبد العزيز جاويش ولا رشيد رضا .. ظل كلاهما غارقاً فى أوهام الماضى ..

ولم يرث عنه هذه الحكمة وذلك الاعتدال إلا سعد زغلول وأحمد لطفى السيد ، وهذه السلسلة الباهرة من أهل العقل والحكمة والاعتدال ، الذين خرجوا بمصر من الظلمات إلى النور ..

وفى السنوات القليلة التى سبقت الحرب العالمية الأولى ـ لنقل فيما بين ١٩١٠ و١٩١٤م ـ تبدَّد نهائياً من أذهان المصريين كل أمل فى آل عثمان.

وشعر المسلمون من أهل مصر أنهم وحدهم أمام العدو ، وأنهم إذا أرادوا الحرية والتقدم فلا اعتماد لهم إلا على أنفسهم ..

مثل هذا التطور حدث فى المعسكر القبطى ..

كان الذين اندفعوا منهم مع موجة التعصب يتصورون أن وراءهم ـ آخر الأمر ـ بريطانيا العظمى ورجالها !

وقد اجتهد إلدون جورست فى أن يدفعهم فى هذا الطريق دفعاً ، حاسباً أنه يضمن بذلك أن يجعل منهم أنصاراً للاحتلال ..

فى هذه الفترة ـ فيما أعتقد ـ تجىء الحكاية التى يروونها بصور شتَّى وينسبونها إلى أكثر من بطرك من بطاركة الأقباط فى ذلك العهد ، والغالبية تنسبها إلى الأنبا كيرلس الخامس..

هذه الحكاية تتلخص فى أن المعتمد البريطانى زار البطرك ، فوجده جالساً فى مصلاَّه خاشعاً بين يدى ربه ، فى غرفة هى الغاية فى الزهد والتقشف ..

وكأن المعتمد البريطانى ظن أن ذلك راجع إلى فقر يعانيه ، غير عالم أنه فى حضرة رجل مؤمن زاهد فى الدنيا وخيرها ، رجل من أهل الحقيقة كما يقول الصوفية ..

وعرض عليه أن يطلب ـ باسم الأقباط ـ حماية الملكة فيكتوريا .. واستمع الرجل الوقور إلى هذا السيد الضخم الذى ملأت أحلام الإمبراطورية والشر رأسه ، ثم نظر إليه وقال :

ـ هذه الملكة فيكتوريا إنسانة ، بشر أقصد..

ـ نعم .. ولكنها ..

ـ أقصد أنها ستموت يوماً ما ..

ـ ماذا تعنى ؟..

ـ أعنى .. أرجوك أن تقول لجلالة الملكة إن أقباط مصر ليسوا فى حاجة إلى حماية بشر هالك ، لأنهم فى حماية الحى الذى لا يموت..

كان كلام هذا الحَبْر الجليل رمزاً على تحوُّل حاسم عميق عند الأقباط جميعاً..

فإن إلدون جورست مضى لشأنه سنة ١٩١١م وحلَّ محلَّه هوراشيو كتشنر ، وكان عسكرياً غشوماً لا يفكر إلا فى « بريطانيا العظمى » ..

وكانت فرنسا قد تخلَّت تماماً عن مصر ، وخيَّبت رجاء من كانوا يؤملون فيها ، وعقدت مع بريطانيا «الاتفاق الودِّى» سنة ١٩٠٤م وتركت المصريين ـ مسلمين ونصارى ـ للإنجليز يفعلون بهم ما يريدون ..

وأخذ كتشنر يعتمد على المرتزقة الأروام والمالطيين ، وكل من وجد فيه استعداداً لخدمة انجلترا وحدها ، دون نـظر إلى مصر أو المصريين ..

وفتح الجيل الجديد من أقباط تلك الأيام عينيه ليجد نفسه وحيداً فى المعركة ..

ووجد إلى جانبه جيلاً مثله من المسلمين المصريين الجدد..

وانتهى الجيلان إلى أن أملهما الوحيد هو مصر ، إنقاذ مصر ، والنهوض بمصر ..

هى البداية ، وهى النهاية .. هى الأمل ، وهى النور ..

ويداً فى يد ، بدآ المسيرة من جديد..

والدين لله ، والوطن للجميع ..

***

وماذا قال جمال عبد الناصر للصحفى الفنزويلى ؟

ـ ليست لنا سياسة « دينية » .. سياستنا « مصرية » ، وهذا يكفى .. وأعداؤنا الذين يهددون بإعلان الحرب علينا إنما يهددوننا جميعاً : مسلمين ومسيحيين .. والعرب الذين طردهم الإسرائيليون من بلادهم مسلمون ومسيحيون ..

***

obeikandl.com

على منبر واحد
هتف لمصر الشيخ والقسيس !

• ماذا جرى لنا فى أثناء الحرب العالمية الأولى ؟:

كانت سنوات الحرب العالمية الأولى ـ برغم سوء أحوالها وقسوتها على المواطن المصرى ـ فترة استجمام وهدوء ، تغيَّر خلالها المنظر السياسى والاجتماعى فى مصر تغيُّراً حاسماً ، دون أن يكون لأحد فى ذلك كبير فضل . فى أثنائها خلا المسرح المصرى من كل أبطاله القدامى ، وساده السكون كأنما قد انتهت المسرحية ، ونسى الموكلون بالستار أن يُنزلوه ..

ذهبت مع أمس الدابر أيام عباس حلمى بخبثه وجمود قلبه وأنانيته ، وذهب أيضاً كتشنر بصلفه وجبروته وإيمانه الساذج بأن الإنجليز هم بوليس العالم ، وحلَّ محلَّه عسكرى بريطانى قحٌّ يسمَّى السير جون ماكسويل ، لا يعرف عن مصر إلا أنها قاعدة عسكرية إنجليزية ، وعن المصريين إلا أنهم طفيليون يعيشون حول هذه القاعدة . وكان إلى جانبه دبلوماسى بريطانى واستعمارى تقليدى يسمَّى ميلن تشيتهام-Milne Cheet ham ، يشغل وظيفة نائب المعتمد البريطانى ، وعمله يتلخص فى إيصال أوامر ماكسويل إلى حسين رشدى رئيس الوزارة ، ليقوم بتنفيذها ..

واختفى من الميدان الشيخ على يوسف وعبد العزيز جاويش ، وفُرضت الأحكام العرفية والرقابة على الصحف ، وتعطلت الأذهان عن الحركة ..

وأخذت السلطة الإنجليزية تستولى على كل شىء تريده ، دون أن تؤدى عنه إلا أبخس ثمن : القطن والقمح والذرة والبقر والجاموس والجمال والحمير .. والناس أيضاً..

لم يفرِّق الإنجليز فى ذلك بين مسلم وقبطى ، نهبوا الجميع ، وأخذوا الناس من قراهم وساقوهم للخدمة فى مؤخرة الجيش البريطانى ، وعهدوا إليهم بأخسِّ الأعمال :

تمهيد الأرض ورفع الأتربة والرمال ، ووضع قضبان السكك الحديدية وبناء الثكنات ، وسَوق الدواب التى تحمل المئونة للإنجليز ..

وفى هذه العمليات الخسيسة مات من المصريين ألوف بعد ألوف : بلا شرف ولا كرامة ..

وهذه أسوأ معاملة أنزلها بشر ببشر .. وربما كان الشر أهون لو أنهم اعتبروهم جنوداً وسلَّحوهم ودرَّبوهم وألقوا بهم فى الميادين ..

لأن المقاتل مقاتل على أى حال ..

وبعد الحرب ، ربما نفع الباقون منهم كمحاربين ..

أما أن يضحَّى بالألوف فى عمل كهذا ، فمهانة لا يُلحقها إنسان بأخيه الإنسان إلا إذا تجرد من الضمير ..

ولكن ، رُبَّ ضارة نافعة ..

فقد رأى إخواننا الذين خدعهم مكر الإنجليز ، أنهم كانوا على وشك أن يحطموا وطنهم ..

وتلاحمت صفوف المصريين أكثر مما تلاحمت من قبل ..

ولا يصور لنا هذا التحول العميق إلا رجل مثل سلامة موسى ..

قبيل الحرب العالمية الأولى كان سلامة موسى شاباً متطلعاً للمستقبل ، طموحاً إلى العمل فى سبيل تحرير وطنه ، ولهذا سافر إلى أوربا ليستزيد من الثقافة ، وليتمكن من خدمة بلاده عن طريق الصحافة وتأليف الكتب . فى كتابه «تربية سلامة موسى» نشعر أننا نقرأ لمواطن مصرى كريم يحب بلده ويحس مشاعر مواطنيه ويحسن التعبير عنها ، ولا نشعر قط أنه يتكلم كقبطى ، وهذه هى الحقيقة المهمة التى أريد هنا أن أضع تحتها أكثر من خط..

سلامة موسى الشاب كان نموذجاً لجيل جديد من شباب الأقباط ، ظهروا قبيل الحرب العالمية الأولى وفى أثنائها ، وقد تفتحت عيونهم على الحقيقة الخالدة : لن تنجح مصر إلا بتعاون جناحيها: المسلمين والأقباط. مصر بلدهم جميعاً ، ولا وطن لهم ولا مستقبل

ولا أمل إلا فيها وبها ومنها . لن تنجح مصر بأمثال عبد العزيز جاويش ، ولن تنجح كذلك بأمثال بطرس غالى وبشرى حنا ـ قبل أن يهديه الله سواء السبيل ..

وإنما تنجح مصر بأمثال عثمان صبرى ، ذلك الرجل المعتدل المتزن الذى رأس تحرير « اللواء » بعد جاويش ، وسلامة موسى الذى عمل معه ، وأحمد لطفى السيد الذى قاد الحركة الثقافية فى ذلك العصر ، وسينوت حنا الذى وضع نفسه وماله فى خدمة مصر، والشيخ محمود أبو العيون الذى كان يشترك فى إلقاء الخطب الوطنية فى المساجد والكنائس بصحبة القمص مرقص سرجيوس ، ذلك الثائر الملتهب الذى ظل زوبعة لا تهدأ حتى بلغ الثمانين ، ومحمد كامل حسين الذى تجلَّى فيما بعد عن واحد من أنبغ أطباء مصر ورجال الفكر فيها ، والقمص بولس غبريال ، ذلك الخطيب البليغ الذى سار مع إخوانه المسلمين يخطب ويطالب باستقلال مصر .. وغيرهم مئات كثيرون ممن بدأوا فى تاريخ مصر صفحة جديدة ..

يعبِّر سلامة موسى فى كتابه عن شعور جيله هذا تعبيراً هادئاً موجزاً ولكنه صادق عميق..

فهو يحكى كيف ضيَّقت عليه الرقابة البريطانية فى أثناء الحرب ، حتى اضطر إلى ترك العمل فى الصحافة والهرب إلى الأرياف ..

وفى الأرياف رأى من ظلم الإنجليز واستبداد « السلطة » بأهل مصر ما جعل قلبه ينفطر أسفاً على مصير بلاده على أيدى المحتلين ..

وهو يحكى كيف أراد مرة التوسُّط لفلاَّح شاب مسكين ، للحيلولة بين رجال السلطة وأخذه للعمل الشاق المهين والموت فى فلسطين ، فما كان من الموظف الإنجليزى إلا أن انتهره وهدَّده بربطه مع الشاب بنفس حبله وجرِّه معه إلى فلسطين ..

وهو يحكى كيف أن توفيق دوس ـ وكان عضواً فى لجنة الثلاثين التى وضعت أول دستور لمصر بعد إعلان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م ـ طلب أن يوضع فى الدستور نص يسجِّل للأقباط حقوقاً معينة ، فثار عليه شباب الأقباط أنفسهم وأفهموه أن مصر لا تعرف تفرقة دينية ، وأن مواطنيها جميعاً إخوة متساوون فى الحقوق والواجبات ..

وهو يحمد الله على أن فتنة المتعصبين قد مرت ، وأن عصراً جديداً من التسامح

والوطنية الصادقة يتقدم بخُطًى ثابتة نحو مستقبل أسعد لمصر وأهلها ، ويؤكد أن اتحاد أهل مصر جميعاً ووقوفهم أمام كل عدو للبلاد ، هى الحالة الطبيعية للمصريين على طول تاريخهم ، وأن حالات الخلاف والفرقة نادرة ، ولابد أن تكون من صنع أجنبى يريد الشر بمصر والمصريين جميعاً : مسلمين وأقباطاً..

وهو يؤيد كلامه بالقول بأن اتحاد الأقباط مع المسلمين ، فى أوقات الشدة والجهاد والفداء ، ظهر أيضاً بأجلى مظاهره أيام الثورة العرابية . فى تلك الأيام كان عبد الله النديم ـ خطيب الثورة ـ يتناوب الخطابة على منابر المساجد مع الأقباط ، داعين للثورة والانضمام لعرابى وصحبه ، ومهاجمين الإنجليز أعداء البلاد .

وسلامة موسى ـ وهو من أفذاذ المفكرين ومن عظماء المصريين دون شك ـ يؤكد أنه ما من فتنة وقعت بين الأقباط والمسلمين ، إلا كان سببها الإنجليز وسعاياتهم ، وحرصهم الدائب على التفريق بين أهل البلاد ..

وصدور هذا الكلام عن قبطى جليل ، يعرف الأقباط وحقيقة مشاعرهم معرفة جيدة ينبغى أن يؤخذ على أنه وثيقة ، فما كان هذا الرجل الحر ليلقى هذا الكلام جزافاً . فإن ميزة سلامة موسى الكبرى كمفكر ، هى أنه كان يتحرى الصدق دائماً فيما يقول ، وكان حراً صريحاً جريئاً لا يناور ولا ينافق . ولقد زرناه مرة فى مجلة « الحياة الجديدة » التى كان يصدرها ، فإذا هو فى ضائقة مالية شديدة ، لأن المجلة استنفدت ماله . ونصحه واحد من أصحابنا بأن يكتب مقالاً يؤيد به الأحرار الدستوريين ـ وكانوا فى الحكم حينذاك ـ فصمت سلامة موسى ، وكان شديد الحياء ، وبدت فى أساريره أمارات الغضب والألم ، ثم قال لصاحبنا : « الكلام دا عيب يا أخى » ..

ولم يزد ، ولكن الشاب لم يلبث أن نهض وانصرف ..

***

هذا التغيُّر الحاسم فى النفسية المصرية الذى تم خلال الحرب العالمية الأولى هو الذى أخرج جيل ثورة ١٩١٩م ، وهو الجيل الذى قاده سعد زغلول ..

كان جيلاً شاباً مؤمناً بمصر وحدها ، لا يعرف تفرقة بين مصرى ومصرى ، لأنه رأى بعينه أن المحتل ورجاله والخديو وأعوانه لا يريدون خيراً بأحد من المصريين :

يستوى فى حسابهم المسلم والقبطى والفلاَّح والصعيدى . كلهم ـ فى نظرهم ـ عبيد ، ينبغى أن يعاملوا معاملة العبيد ...

والصفة الأساسية فى سعد ، التى مكَّنت له من قيادة مصر كلها قيادة شاملة حازمة حاسمة ، هى أنه آمن بمصر وحدها واتخذ الإيمان بمصر أساساً للعمل ومقياساً للرجال.

فحسين رشدى باشا كان يرى نفسه من الطبقة التركية السائدة ، وقد تعاون مع الإنجليز طوال سنوات الحرب « بإخلاص » لا يحسد عليه..

ولكن عندما بدأت الثورة وقف حسين رشدى إلى جانب قضية مصر ، وانضم إلى سعد فى طلبه التصريح للوفد بالسفر إلى أوربا لعرض قضية مصر على مؤتمرات الصلح ، فلمَّا رفض الطلب استقال حسين رشدى فى ديسمبر١٩١٨م.

وقد حمد «سعد» لرشدى موقفه هذا ، ونسى له ما كان منه أيام الحرب..

وسعد نفسه كان من بين أولئك الذين تطوَّر تفكيرهم السياسى تطوراً حاسماً فى أثناء الحرب ..

لقد خدم أيام الاحتلال ، وتولَّى الوزارة برضا كرومر ، ولم يجد فى ذلك غضاضة ، لأنه كان ـ مثل غيره ـ يحسن الظن بالإنجليز ، ويحسب أنهم صادقون فيما كانوا يقولونه من أن الاحتلال مؤقت ، وأنه سيزول فى يوم قريب ..

وكان المصريون ـ جميعاً ـ عقب الاحتلال يرون أن عدو البلاد الأول هو الخديو. ومحمد عبده نفسه كان يقول إن المصريين أمام عدوين : الخديو والإنجليز ، وأن الإنجليز أهون شراً ، وأن الخطر الحقيقى على مصر والمصريين هو الحاكم من شجرة إسماعيل ومحمد على .

وكان الخديو قبل الحرب هو توفيق الذى استعان بالإنجليز على مواطنيه ، وبعده جاء عباس حلمى ، وكان شيطاناً خبيثاً ، ورجلاً جشعاً ينهب البلاد دون حياء. وكان ـ فى حقيقة الأمر ـ سند الاحتلال الأول ..

وكان سعد من أعداء الخديو .

فلمَّا جاءت الحرب عزل الإنجليز الخديو عبَّاساً وأقاموا مكانه السلطان حسيناً ، ثم أطلقوا أيديهم فى البلاد ..

ورأى سعد وغيره من أبناء جيله حقيقة الإنجليز ، فقد عسفوا أهل مصر جميعاً ونهبوهم على صورة هى أبشع ما حدث فى تاريخها ، وهل هناك أبشع من أعمال السلطة البريطانية التى ضحّت بعشرات الألوف من المصريين دون رحمة ، وانتزعت الشباب من القرى لتلقى بهم فى وهج الشمس ، يحفرون القنوات فى الصحراء ويمدُّون الخطوط الحديدية ، ولا غذاء للواحد منهم إلا رغيف جاف وطبق فيه من السوس أكثر مما فيه من العدس ، فإذا مات دفنه إخوانه حيث كان فى الطريق ..

هذا إلى سرقة خيرات البلاد ونهبها دون حساب ..

هذه الحقيقة التى ذكرها ووصفها سلامة موسى فى « تربيته » ، هى التى رفعت الغشاوة عن أعين سعد ومواطنيه ..

ولم يكن سعد ليستطيع أن يعمل شيئاً فى أثناء الحرب ، فلمَّا انتهت أحسَّ أن ساعة العمل قد أتت ، فسار فى طريقه المعروف .

وهو عندما فعل ذلك دخل فى دور جديد من حياته ، دور الثائر على العدوان على بلاده ، المكافح لدفع الظلم عن مواطنيه ، المناضل فى سبيل استقلالهم التام لا مجرد رفع الحماية عن بلادهم ..

وهذا هو الذى جعل نداءه يكتسح البلاد كلها ووصل بصوته إلى بطون الريف ، فاستجاب للنداء الباشا القديم الذى كان يخدم الاحتلال ، والطالب الناشئ الذى كان يستعد لمستقبله و« ابن البلد » الذى كان لا يزال يعيش فى أحياء مصر البلدية الغارقة فى العصور الوسطى إذ ذاك ، والفلاَّح الذى كان يعيش فى عصر الفراعنة فى بطون الريف..

وهذا النداء نفسه هو الذى أزال كل أثر للشك والريبة من نفوس المسلمين والأقباط ، وأنساهما أحاديث مؤتمر الأقباط وضلال بطرس غالى وصرخات الشيخ جاويش ، وجعل من هؤلاء جميعاً جيشاً مصرياً واحداً ، يخدم مصر ويطلب الموت فى سبيلها..

● سينوت حنا .. رمز لجيل مجيد:

فى هذه الظروف ظهر أقباط مصر بطبعهم الصادق ومعدنهم الصافى ، فأيدت غالبيتهم العظمى سعداً ووقفوا تحت رايته مناضلين .

وعندما قرر الوفد توسيع نطاقه بضم نفر من أعضاء الحزب الوطنى فى أبريل ١٩١٩م ، تقدَّم نفر من زعماء الأقباط ليأخذوا مكانهم فى صفوف الجهاد .

وفى الوقت الذى ضم الوفد إلى قيادته مصطفى النحَّاس والدكتور حافظ عفيفى (وكانا من رجال الحزب الوطنى) ضم أيضاً رجالاً آخرين هم : سينوت حنا وجورج خياط وواصف غالى ، إلى جانب حمد الباسل وإسماعيل صدقى ومحمود أبو النصر وحسين واصف وعبد الخالق مدكور.

ونقف لحظات عند سينوت حنا ..

لقد رأيناه من قبل يعارض أخاه بشرى حنا فيما كان ماضياً فيه عندما عقد المؤتمر القبطى .

وكان سينوت إذ ذاك شاباً ذا مركز ممتاز ، فقد كانت أسرته من أغنياء الصعيد . كانت لهم ضياع واسعة فى ناحية ببا بمديرية بنى سويف ، وكان لهم مصرف خاص وأملاك أخرى فى مديرية الفيوم .

ومنذ أن دخل سينوت الوفد وقف صامداً ثابتاً إلى جانب سعد ، دون أن يبدو منه فى مرة من المرات أى تردد أو شك .

ولقد نُفى واضطُهد وفقد الكثير من ماله ، وظل ـ برغم ذلك ـ ثابتاً ثبات الصخرة ، زاهداً فى كل جزاء حتى انتهت أيام سعد ..

وبعد سعد زغلول وقف سينوت إلى آخر حياته إلى جانب خليفته مصطفى النحَّاس حتى لقد فداه بنفسه مرة ، إذ تلقَّى بصدره حربة وجَّهها أحد جنود البوليس إلى ظهر النحَّاس ، فى أثناء وزارة إسماعيل صدقى التى كانت إحدى التجارب التى لجأ إليها القصر والإنجليز ، ليكسروا شوكة شعب مصر وليضيِّعوا على الشعب ذلك الكسب الضئيل الذى ناله من تصريح ٢٨ فبراير١٩٢٢م..

ومع عظيم قدره وتضحيته لم ينل سينوت شيئاً ، لأنه لم ينظر إلى مقابل أو جزاء ..

لقد أنفق من ماله على الحركة الوطنية ألوفاً كثيرة ، ومع ذلك فكلما جاءت وزارة وفدية تراجع إلى الوراء وترك غيره يحظى بالمنصب الكبير..

وكان لا يهتم بالظهور قط ، كان دائماً يعمل فى صمت ووقار دون أن يستهويه لقب أو منصب ..

كان إيمانه بمصر وحقها صادقاً خالصاً عميقاً .

وبإخلاصه هذا ضرب للمصريين مثلاً عظيماً فى الوطنية.

حتى أخوه بشرى حنا اقتنع بما لم يكن يؤمن به ، فدخل الوفد وصار من رجاله ..

وكان سعد يحب سينوت حباً شديداً ، فكان لا يمر يوم دون أن يراه ، ولا يقطع برأى دون مشورته ، ثقة منه فى صدقه وإخلاصه .

وبعد نفى سعد النفى الأول إلى مالطة ، نجد سينوت حنا بارزاً بين الطبقة الثانية من الوفديين ، الذين تولَّوا قيادة الثورة فى غياب سعد.

ويبدو اسمه فى النداء الذى وجَّهه قادة الأمة فى ٢٤ مارس ١٩١٩م إلى الشعب ، ينصحونه بالتزام الهدوء بعد أن بلغت الثورة ذروة عنفها ، وتساقط الشهداء بالمئات فى نواحى القطر كله..

هنا نجد إمضاءه إلى جانب ستة أقباط آخرين فى مقدمتهم الأنبا كيرلس بطريرك الأقباط ..

من ذلك الحين لا نجد عملاً وطنياً فى الصراع مع الاحتلال إلا وسينوت حنا فى طليعة المشتركين فيه ..

وعندما خرج سعد إلى منفاه فى سيشل مساء الخميس ٢٩ ديسمبر ١٩٢٠م كان معه ثلاثة من المسلمين : فتح الله بركات وأخوه عاطف ومصطفى النحَّاس ، واثنان من الأقباط : سينوت حنا ومكرم عبيد ..

ويقال إن سعداً عندما بارح داره فى الطريق إلى المنفى كان شديد التأثر بادى الهم ..

وأنه عندما أقلعت به السفينة إلى منفاه فى جزيرة نائية فى المحيط الهندى وضع يداً على كتف سينوت ويداً على كتف مصطفى النحَّاس وابتسم وقال : مع أبنائى لا أشعر بأننى منفىّ .. كان الله فى عون أبنائى الذين تركتهم فى مصر ..

وفى سيشل كان سعد ينسى آلامه ، عندما يتمشَّى مع سينوت فى حديقة داره فى المنفى .

صورة رائعة من صور الإخاء فى وطننا الخالد ..

سعد زغلول الذى لم يرزقه الله ولداً من صلبه ، رزقه الله ولدين كانا أحب إليه من أبناء الصلب ، هما سينوت حنا ثم مكرم عبيد ..

وعلى هذه الصورة من الولاء والتضحية ظل سينوت حنا إلى وفاته : لم يطلب لنفسه يوماً شيئاً ، ولا هو استعظم تضحية فى سبيل وطنه.

• القمص مرقس سرجيوس .. الثائر الذى لا يهدأ :

وسنتحدث فيما بعد عن ويصا واصف وواصف بطرس غالى ومكرم عبيد..

ولكننا نقف وقفه قصيرة عند مواطن قبطى آخر يعدُّ من طلائع رجال ثورة ١٩١٩م وشخصياتها التى لا تُنسى : القمص مرقس سرجيوس ، الذى كان طوال حياته ثائراً على كل ما لا يرضيه : على الاحتلال البريطانى ، وعلى بعض أوضاع خاصة داخل الكنيسة القبطية ، بل على البطريرك يؤانس الذى كان طوال مدة بطريركيته نموذجاً للراعى الصالح لشعبه وللمسيحى المخلص لكنيسته ..

ولكن القمص مرقس سرجيوس كان زوبعة ثائرة على كل شىء .

وسط الثائرين المصريين كان مرقس سرجيوس أشبه الناس بعبد الله النديم ، ذلك الثائر البطل الذى تتلخص حياته فى كلمات : حب مصر .. الثورة على الاحتلال .. الجهاد حتى الموت .. لا هدنة مع الشر والفساد .

عاش عبد الله النديم نصف حياته العملية فى المنفى : لم يهادن المحتل قط ، ولا تخلَّى عن إخلاصه لأحمد عرابى بعد أن تخلَّى عنه كل الناس ، ونُفى إلى الشام مرتين وأخيراً مات منفياً بعيداً عن بلاده فى الآستانة..

كان مصرياً أصيلاً وثائراً بطلاً..

وكذلك كان مرقس سرجيوس ..

كان يحمل بين جنبيه قلب أسد ونفساً صافية ، وقد وهبه الله لساناً فصيحاً يهز أوتار القلوب ، كما كان عبد الله النديم ..

عندما قامت الثورة ألقى بنفسه فى غمارها .. ومضى إلى الأزهر فارتقى المنبر

وجعل يخطب ..

ودهش الناس عندما رأوا قسّاً قبطيّاً على منبر الأزهر يبدأ خطابه قائلاً : بسم الله الرحمن الرحيم (!) ويقول إن الوطن لله ، وإن عبادة الوطن هى وعبادة الله سواء ، وأنه فى سبيل مصر ينسى أنه قبطى ، لأن مصر لا تعرف قبطياً ولا مسلماً ، وإنما هى تعرف أن الكل أبناؤها ، وتطلب منهم جميعاً أن يقفوا دونها صفاً واحداً ، ليحموا من العدو الإنجليزى المحتل أرضها ..

وفى خطبة من خطبه أمام فندق الكونتنتال قال إن الإنجليز ليسوا مسيحيين ولا يعرفون الله ، وإنما هم كفار ..لأن الذى يغتصب بلاد الناس ويقتل الشباب الهاتف لوطنه كافر ، وظل يردد : كافر.. حتى أسرع نحوه جندى إنجليزى مصوِّباً مسدسه إلى صدره . وصاح الناس: سيقتلك يا أبانا .. اسكت يا أبانا . ولكن القس مضى فى خطابه يقول : متى كنا نخاف من الرصاص والموت؟ دعوه يقتلنى لتطهر أرض مصر بدمى وتحلَّ عليها بركة الرب ..

وعندما أحس أن بعض إخوانه الأقباط متقاعسون بعض الشىء ، مترددون بين التزام الهدوء وبين السير مع الثورة ، هاجمهم وما زال بهم حتى دفعهم فى عباب الثورة ..

وفى حرارة إيمانه وثورته نسى الجميع مخاوف الماضى ، وعرفوا أن الإنجليز أعداء لوطنهم مصر ؛ ولا خير يرجى من عدو ، لا لمسلم ولا لقبطى ..

وفى صحبة الشيخ محمود أبو العيون ـ من كبار علماء الأزهر إذ ذاك ـ عاد إلى الأزهر الشريف واعتلى منبره ، وخطب معلناً أنه مصرى أولاً وثانياً وثالثاً ، وأن الوطن لا يعرف مسلماً أو قبطياً ، بل يعرف مجاهدين فقط ، دون تمييز بين عمامة بيضاء وعمامة سوداء ..

كان يخرج من كنيسته فى «الفجَّالة» مع الصباح متجهاً إلى الأزهر ـ وكان ملتقى الثوار ـ وهناك يلتقى بالشيوخ..

فى ذات مرة ظل يخطب هو وعلى الغاياتى أربع ساعات متوالية على منبر جامع ابن طولون ..

وعلى إثر ذلك قبض عليه الإنجليز ونفوه إلى رفح ، مع الشيخ الغاياتى ومحمود

فهمى النقراشى ونفر آخر من رجال الثورة . وهناك ـ على ساحل قطعة عزيزة من أرض مصر ـ سار الشيخ والقس يتحدثان عن مصر ويرتِّلان أناشيد حبهما لمصر ..

وبعد أن عاد من الاعتقال أخذ يكتب المقالات الوطنية فى صحيفة «المنارة المرقسية» ..ولم يكتف بما كان يكتب من مقالات ثائرة يوقعها باسمه ، بل كتب مقالات أخرى وقَّعها باسم « يونس المهموز» ..

وفى سكون الصمت والمنفى الذى مات فيه عبد الله النديم .. مات أيضاً مرقس سرجيوس منفياً عن وطنه ، وإن كان فيه ! ..

مات سنة ١٩٦٤م ..

حقاً ، إن أمة فيها أمثال عبد الله النديم ومرقس سرجيوس لا يمكن أن تموت..

وقبل أن أترك هذه الفقرات أحب أن أسأل قرائى : لماذا تسمَّى الكنيسة القبطية «الكرازة المرقسية » ؟

فأما « الكرازة » فتحريف للفظ « الكلازة » ، والكلازة هى الصورة العربية الدارجة للفظ Ecclesia اليونانى ومعناه الجماعة المسيحية ،أو «الشعب» فى قاموس أقباط مصر.

و« المرقسية» نسبة إلى القدِّيس مرقس ، أو مرقس البشير . ومرقس كان من أهل القدس ، وهو لم ير السيد المسيح ولا سمع منه وإنما تتلمذ على بولس وبرنابا . وعندما اختلف بولس مع برنابا انفصل مرقس عن بولس ، وتبع بطرس وأخذ عنه وأصبح تلميذه ، وكتب عنه ما يسمَّى بإنجيل بطرس ، وهو من الأناجيل التى أُبطلت.

وكان مرقس مبشِّراً رحَّالة ، عاش حياته متنقلاً بين فلسطين وآسيا الصغرى وقبرص ومصر وروما.

وفى طريقه من القدس إلى روما مر بالإسكندرية ، وبقربها كتب إنجيله الذى يعتبر أصغر الأناجيل حجماً ولكنه أبلغها لغة . وفى تلك المناسبة أيضاً وضع أساس كنيسة الإسكندرية ، فهو منشئها ، ولهذا فهى كنيسة مرقس ، وقد سُمِّيت أولاً كرسى مرقس Cathedra Marci . وبعد ذلك رحل إلى روما ولحق ببطرس ثم عاد إلى الإسكندرية وفيها مات .

وفى طريقه إلى مصر مر ببلدة أكيليا Aquileia التى قامت على أنقاضها البندقية Benedictia. وأهل أكيليا هم الذين أنشأوا البندقية التى تحرَّفت إلى فينيسيا ، ويقال إن مرقس هو الذى أنشأ كنيستها أيضاً .

وفى القرن العاشر المسيحى ـ أيام الفاطميين ـ أغار على شواطئ الإسكندرية قراصنة إيطاليون فسرقوا رفات القدِّيس مرقس وأخذوه إلى بلدهم ، وعلى ضريحه فى البندقية أقاموا كنيسة سان ماركو ـ أو سمّاركو ـ التى طالما أُعجب بها زوار البندقية .

وإذن: فكنيستنا ـ أو كرازتنا ـ المرقسية من أقدم وأجلِّ كنائس الدنيا ، وهى من الأعلام الكبرى فى تاريخ حضارة مصر الزاهر. .

فى الإسكندرية كُتب واحد من الأناجيل الأربعة ..

وفى الفسطاط كتب محمد بن إدريس الشافعى مذهبه بعد ذلك بثمانية قرون ، وهو أحد مذاهب الإسلام الأربعة .

أىُّ تاريخ جليل رائع هو تاريخ مصر ! ..

وأىُّ أرض مباركة هى أرض مصر !..

وعندما تبادل الشيخ محمود أبو العيون والقمص مرقس سرجيوس الخطب على منبر الأزهر ، بدا وكأن الرسول مرقس يمدُّ يده من وراء القرون ليصافح محمد بن إدريس الشافعى !

أىُّ تاريخ جليل نحن ورثناه ؟!

فهل نحن جديرون بهذا التراث ؟..

أرجو .. بل لا أشك فى أننا جديرون به ..

لأن صورة سعد زغلول جالساً فى جزيرة خافية وراء أمواج المحيط ، وقد وضع يمناه على كتف سينوت حنا ويسراه على كتف مكرم عبيد ، وثلاثتهم صامتون وقلوبهم تصلِّى من أجل مصر .. هذه الصورة صورة شعب عظيم ..

وأرض مصر التى ضمَّت رفات القدِّيس مرقس ، ثم رفات البطاركة العظام كيرلس وديوسقوروس وأوتيخا ، الذين هزوا عرش الطاغية فى القسطنطينية ، إلى جانب رفات

عمرو بن العاص الذى قضى على عرش هذا الطاغية ، ثم رفات الليث بن سعد وأولياء الله من سكان القرافة عند سفح المقطَّم ، ومحمد بن إدريس الشافعى «عالم قريش الذى ملأ طباق الأرض علماً » ..(هكذا نقرأ على ضريح الإمام) ، هذه الأرض لابد أن تكون أرضاً مقدَّسة...

***

نعم ، وماذا قال جمال عبد الناصر للصحفى من فنزويلا ؟

ـ ليست لنا سياسة « دينية ».. سياستنا « مصرية » ، وهذا يكفى .. وأعداؤنا الذين يهددون بإعلان الحرب علينا ، إنما يهددوننا جميعاً : مسلمين ومسيحيين .. والعرب الذين طردهم الإسرائيليون من بلادهم إنما هم مسلمون ومسيحيون ..

***

obeikandl.com

٣

«الاتحاد» دستور مصر الخالد

فى «سيرة كوكب البرية القديس الأنبا أنطونيوس المصرى» (من أسيوط) بقلم القمص كيرلس الأنطونى (القاهرة١٩٥٠م ، ص١٤٣) تقرأ قصة « المرأة المسيحية الغيورة » التى جرت بسرعة فى زمان الاضطهاد وسط صفوف الجند ، لتلحق بإخوتها المسيحيين خارج المدينة ، وكانت تعرف أن هؤلاء الجنود ماضون فى طريقهم للبحث عن المؤمنين وقتلهم ، فأمسك بها أحد الجنود وأوصلها إلى القائد فقال لها :

ـ لماذا تركضين هكذا مسرعة ؟

ـ لكى ألحق بإخوتى المسيحيين خارج المدينة؟

ـ عجباً .. ألا تعلمين أننا ماضون إلى هناك لقتلهم وتشتيت شملهم ؟

أجابت :

ـ إننى أعرف هذا جيداً ، ولذا أركض مسرعة مخافة أن ينالوا إكليل الشهادة قبلى..

هذه القصة تصلح تصويراً لموقف الأقباط من الثورة بعد أن انضم إليها الرعيل الأول منهم : مرقس سرجيوس وسينوت حنا وويصا واصف وواصف غالى ومرقس غبريال ، ومن إليهم ممن سيرد ذكرهم فيما بعد ..

لقد اعتُقل سعد وأصحابه الثلاثة فى ٨ مارس ١٩١٩م ، وأُبعدوا منفيين إلى مالطة..

ويوم الأحد ٩ مارس ١٩١٩م اندلعت نيران الثورة ..

ويوم الاثنين ١٠مارس ١٩١٩م سقط أول شهيدين : رجل وطفل مجهولان .. هما رمزان على جهاد الألوف من جنود مصر المجهولين ..

وفى يوم الثلاثاء ١١مارس ١٩١٩م سقط أول شهداء الثورة الذين عرفنا أسماءهم : محمد عزت البيومى ، طالب فى عز شبابه ، اغتاله رصاص الإنجليز عند كوبرى شبرا وسجلت وفاته فى دفتر وفيات قسم السيدة زينب ..

وفى اليوم نفسه ـ الثلاثاء ١١مارس ١٩١٩م ـ كان أول إضراب منظم ، هو إضراب المحامين . اتخذوا القرار فى مجلس نقابتهم ووقَّعه أعضاء مجلس النقابة .. نجد من بينهم اثنين من المسيحيين هما إدوار قصيرى وميخائيل جرجس ..

وفى ١٦مارس ١٩١٩م كانت مظاهرة السيدات وهو حادث لم يكن يتصوره أحد .. منظر لو رآه قاسم أمين لظنَّ أنه فى دنيا غير دنياه..

ولم يكتفينَ بالمظاهرة ، بل كتبنَ إلى المعتمد البريطانى احتجاجاً على الاحتلال ، وقَّعه عشرات منهنَّ ..

إلى جانب إمضاءات: حرم حسين رشدى ، وصفية زغلول ، وهدى شعراوى ، وحرم محمود رياض (باشا) ، وحرم محمد سعيد ، وحرم إسماعيل صدقى ، وحرم محمود سامى البارودى ، وكريمته.. نقرأ إمضاءات : حرم حنا مسيحة ، وحرم عزيز مشرقى ، وحرم نجيب إسكندر مسيحة ، والآنسة جولييت صليب ، ومدام روفائيل بغدادى ، وحرم ويصا واصف ، وحرم صليب منقريوس ، وحرم ميخائيل لبيب ، والآنسة مارى ميرهم..

عشر سيدات وآنسات قبطيات يذكِّرننا بـ« المرأة المسيحية الغيورة» التى روينا خبرها أول هذا الحديث .. أولئك المصريات كنَّ غيورات أيضاً ، جازفنَ بأنفسهنَّ وركضنَ مسرعات مخافة أن ينال غيرهنَّ من المواطنين شرف الشهادة قبلهنَّ ..

وكانت تلك المظاهرة موضوعاً لقطعة من أجمل شعر حافظ إبراهيم :

خَرَجَ الغَوَانِى يَحْتَجِجْنَ ... وَرُحْتُ أَرْقُبُ جَمْعَهُنَّهْ

فَإِذَا بِهِنَّ تَخَذْنَ مِنْ ... سُودِ الثِّيَابِ شِعَارَهُنَّهْ

إلى آخر هذا الشعر الطريف ، الذى خفَّف عن أهل مصر فى تلك الأيام بعض ما كانوا يقاسونه وبلادهم ترزح تحت نير الاحتلال ، وقادتهم فى المنفى البعيد لا يعرف أحد ماذا تصنع بهم يد الظلم والجبروت ..

• وفى معارك الصعيد تلاشى أمل المستعمر فى التفريق بين الأشقاء :

وفى بلاد مديرية أسيوط وما يليها جنوباً ـ حيث يختلط المسلمون والأقباط فى كل

قرية بل فى كل كَفْر ، حيث نجد الجامع والكنيسة متجاورين فى كل مكان ـ أخذت الثورة على الإنجليز صورة معركة حامية الوطيس ، فى أسيوط وديروط ودير مواس وسوهاج وقنا ، وكان الإنجليز يحسبون أن الثورة عليهم لا تصل إلى هناك أبداً ..

كان ذلك فى ١٨مارس ١٩١٩ م ، والأيام التى جاءت بعد ذلك التاريخ..

بقلب واحد وقف القبطى والمسلم يناجزان العدو الإنجليزى دفاعاً عن وطنهما العزيز ، كما وقفا سنة ١٧٩٩ م يناجزان الفرنسيين ويدافعان عن أرضهما شبراً شبراً ، والقائد الفرنسى ديزيه Desais (أو ديزه كما يسمِّيه الجبرتى) متعجب من ثباتهما واستبسالهما ..

هناك فى صعيد مصر انضم مراد بك الهارب أمام الفرنسيين إلى مقاتلى الصعيد ، أولئك الفرسان الذين كان الواحد منهم يشطر الفرس شطرين بضربة من سيفه . لقد تعلَّم الوطنية على أيديهم ، وعرف الشهامة منهم . عاش عمره سلطاناً ضالاً ظالماً ، ومات وطنياً مجاهداً عندما فتح له أهل مصر قلوبهم . فى سوهاج مات ، وفيها دُفن..

وفى سوهاج عرف الإنجليز أن أهل مصر جيش واحد وقلب واحد ، وأنه لا سبيل إلى قهرهم ..

وكانت للإنجليز معسكرات فى أسيوط وديروط ودير مواس ..

وفى أول صدام بين الإنجليز والصعايدة سقط ثمانية من الإنجليز ، على رأسهم القائمقام بوب بك مفتش السجون فى الوجه القبلى ، والميجور جارفس والملازم ويلبى وخمسة جنود ..

واشتدت المعركة بين الجانبين ، وقام المصريون بما أمكنهم من السلاح القديم ، يواجهون الإنجليز حتى اضطر هؤلاء فى ٢٣ و٢٤ مارس إلى إرسال طائرتين حربيتين ألقتا القنابل على أسيوط وديروط..

وإلى أسيوط أرسلت القيادة البريطانية جنرالاً ـ كأنما كانوا يحاربون الألمان!..

وصل البريجادير جنرال هدلستون إلى أسيوط وقاد المعركة ، وفى ١٢أبريل أصدر بياناً عسكرياً يقول فيه إنه تمكَّن من السيطرة على الموقف ، وقبض على ٤٠٠رجل من أسيوط اتهمهم بالاشتراك فى الثورة ..

ثم نقل مركز قيادته إلى سوهاج ، ثم إلى أسوان..

وقد وقفت عند معارك أسيوط وديروط وما يليهما جنوباً ، لأن اللود كرومر تكلم طويلاً فى كتابه « مصر الحديثة Modern Egypt» عن إمكان التفريق بين الأقباط والمسلمين والاستفادة من هذا الوضع ، وأوصى فى بعض هذا الكتاب بأن تعتمد الإدارة البريطانية على الأقباط دون المسلمين ..

وفى تقرير السير باورينج كلام كثير عن هذا الموضوع ، وقد أثنى على الأقباط ثناء خبيثاً لم يُرد منه الدفاع عنهم ، وإنما أراد نصح دولته بألاَّ تعتمد فى إدارة مصر إلا على الأقباط ، فيكرههم ـ لهذا ـ إخوانهم المسلمون وتقع الفرقة بين شِقَّى الأمة ، فيبتلى بعضهم ببعض ويجنى الإنجليز وحدهم الثمر ..

وقد أبى أهل أسيوط وديروط ودير مواس وسوهاج إلا أن يكذِّبوا هذه الدعوى ، ويقفوا مع إخوانهم يداً فى يد ، منافحين عن وطنهم الغالى ضد العدو اللئيم الذى يريد الشر بهم جميعاً ، وفى شوارع بلادهم وقراهم الممتدة على ضفاف النيل ـ نهر الجنة ـ خاضوا لظى معارك دامية استشهد فيها منهم مئات ، ذهبوا للقاء ربهم وعلى أذرع بعضهم وشم الصليب وعلى أذرع الآخرين وشم الهلال ..

واقرأ عند عبد الرحمن الرافعى فى تأريخه لثورة سنة ١٩١٩م (١/ ١٥٦) تفاصيل هذه المعارك وإحصاء من استشهد فيها من أبناء مصر جميعاً .. ستشعر وأنت تقرأ هذه السطور أنك لن تكون جديراً بمصر حتى تقدِّم دمك فداء لها عن قلب صادق كما فعلوا.

- **وكنا ـ نحن أهل مصر ـ أول من طالب بالاستقلال فى إفريقيا وآسيا ، بعد اليابان:**

لا تنس أننا فى سنة ١٩١٩م..

فى تلك السنة ، وإلى الحرب العالمية الثانية ، لم يجرؤ على الثورة المسلَّحة فى وجه الاستعمار فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية إلا أبناء مصر .. باستثناء أهل اليابان ..

وشعر الإنجليز بأنه لا مقام لهم فى هذا البلد ..

عاجلاً أو آجلاً لابد أن يرحلوا..

وهذا ما قاله أعضاء الوفد الذين كانوا يقودون الأمة فى مصر ، عندما كان سعد زغلول وأصحابه فى المنفى .

كانوا أحد عشر ، من بينهم اثنان من الأقباط : سينوت حنا وجورج خياط..

ومن عجائب الفكر الاستعمارى أن اللورد كيرزون ـ وزير المستعمرات ـ ألقى فى مجلس اللوردات خطاباً عن الحالة فى مصر ، وصف فيه الثورة بأنها عمليات سلب ونهب ، وقال إنه تبين أن قادة الثورة يريدون إخراج الإنجليز من مصر !..

وهذا ـ فى رأيه ـ جريمة !..

وفى ٧ أبريل ١٩١٩م اضطر الإنجليز إلى الإفراج عن سعد وأصحابه المنفيين فى مالطة ، فسافروا إلى باريس لعرض قضية مصر على مؤتمرات الصلح ، ولحق بهم نفر من أعضاء الوفد فى مصر ، من بينهم سينوت حنا وجورج خياط .

وفى يوليو ١٩١٩م قبضت السلطات البريطانية على عبد الرحمن فهمى وزملائه، ممن اتهمتهم بتأليف «جمعية الانتقام » التى غرضها ـ فيما قالت ـ «خلع عظمة السلطان وقلب حكومته والتحريض على الانتقام والقتل»..

ومن بين أعضاء هذه الجمعية نجد ستة من الأقباط : توفيق صليب ومنير جرجس عبد الشهيد وكانا طالبين بمدرسة الأقباط ، وكامل جرجس عبد الشهيد وكان طالباً بمدرسة الحقوق ، وقرياقص ميخائيل الصحفى ، وعازر غبريال وناشد غبريال...

وهكذا : فى كل عمل من أعمال الثورة ، وفى كل خطوة من خطواتها ، نجد المسلمين والأقباط جنباً إلى جنب.

● وكلما طال أمد الثورة توثقت الوحدة بين المسلمين والأقباط :

وبعد أن أخفق الوفد فى الحصول على أى كسب وطنى من اتصالاته فى باريس ثم لندن ، عاد إلى مصر فى ٤ أبريل١٩٢٠م . هنا بدأ الخلاف بينه وبين عدلى على من يتولى رياسة وفد المفاوضات ، الذى دعته انجلترا للتفاهم معه على مصير مصر..

هل يرأسه سعد ، رئيس الوفد الذى منحته الأمة ثقتها ووكّلته عنها ؟

أم يرأسه عدلى يكن ، الذى ألَّف وزارة وطنية وأيَّدها سعد ، ولذلك سُمِّيت «وزارة الثقة » ؟..

ووقع الانشقاق بين أعضاء الوفد ، وانفصل عنه خمسة وقفوا إلى جانب الحكومة .

وبقى مع سعد ـ أى : فى جانب الأمة ـ مصطفى النحَّاس وواصف بطرس غالى وسينوت حنا وويصا واصف وعلى ماهر .

أى أن الوفد أصبح مكوناً من ستة أعضاء : ثلاثة من المسلمين ، وثلاثة من الأقباط .

ومرت الأيام سراعاً والشعب صامد فى موقفه متمسك بمطلبه : الاستقلال ..

وفى أكتوبر ١٩٢١م ، رأى سعد أن يقوم بجولة سياسية فى الوجه القبلى هدفها تقوية جبهة المقاومة الشعبية ـ التى كان يقودها ـ أمام ضغط الحكومة ورجالها..

وذهب مع صحبه فى باخرة نيلية رست فى ١٤ أكتوبر ١٩٢١م فى أسيوط ، وكانت تلك أول محطة لها..

وهنا خرج شعب أسيوط الباسل ـ مسلمين وأقباطاً ـ لاستقبال الرجال المناضلين عن الحرية ..

وأرادت السلطات أن تمنع سعداً من النزول إلى البر ..

وهنا بلغ غضب الشعب مداه ، وقرر رجال أسيوط ـ وفيهم عدد كبير من الأقباط ـ أن يتحدَّوا الحكومة والبوليس ..

وجمع حامد جودة رجال بلدته ، فوقفوا صفاً واحداً حتى تمكَّن سعد وأصحابه من النزول ، ثم أخذهم فى سيارات إلى ضيعته ، وهناك تجمَّع الأقباط والمسلمون للترحيب بالمناضلين ... لقد نص عبد القادر حمزة على هذه الحقيقة فى مقال له نشرته جريدة «الأخبار» التى كانت تصدر فى ذلك الحين ..

وبلغ من عنف المعركة بين الشعب والحكومة ، أن غرق ثلاثة من المواطنين فى النيل وقُتل مواطن وجُرح ثلاثون ..

وحدث ما يشبه هذا فى جرجا ..

وعقب ذلك أصدرت الإدارة أمراً بمنع الوفد من مواصلة الرحلة ..

وفى ٢٢ ديسمبر ١٩٢١م أصدرت السلطة العسكرية البريطانية أمراً إلى سعد

بالكف عن النشاط السياسى ، وأمرته بمغادرة القاهرة إلى بلده ، وبأن يظل هناك تحت تصرُّف مدير المديرية ..

وتلقَّى مثل هذا الأمر ثمانية من أعضاء الوفد ، هم : فتح الله بركات وعاطف بركات ومصطفى النحَّاس وجعفر فخرى وأمين عز العرب وصادق حنين ومكرم عبيد وسينوت حنا ..

ويقول الصحفى الكبير عبد القادر حمزة فى كتابه « اذكروا سعداً وأصحابه المنفيين » إن سعداً عقد اجتماعاً لأعضاء الوفد فى بيته لتدارس الموضوع ، وطال النقاش .. وبينما هم مجتمعون وصل مكرم عبيد إلى بيت الأمة وانضم إلى الاجتماع ، وأشار برفض الإنذار البريطانى وحث على ذلك بكل حرارة .. قال عبد القادر حمزة : «.. وكانت كلمة الأستاذ مكرم عبيد هى القول الفصل ».

وهكذا تقرَّر رفض الإنذار ..

وفى اليوم التالى كتب سعد إلى الفيلد مارشال أللنبى رَدَّهُ التاريخى الذى قال فيه كلمته الخالدة : « وبما أنى موكَّل من قِبَل الأمة للسعى فى استقلالها ، فليس لغيرها سلطة تُخلينى من القيام بهذا الواجب المقدس . لهذا سأبقى فى مركزى مخلصاً لواجبى وللقوة أن تفعل بنا ما تشاء أفراداً وجماعات ..» .

وقررت الحكومة البريطانية نفى سعد وأصحابه إلى جزيرة سيشل ، وفى ٢٩ ديسمبر ١٩٢١م غادروا السويس إلى المنفى المجهول ..

فى صحبة سعد كان مصطفى النحَّاس وسينوت حنا ومكرم عبيد ، وكان فى تقدير الإنجليز أن مصيرهم ينبغى أن يكون مصير عرابى وأصحابه: مات منهم فى المنفى من مات ، وعاد عرابى إلى بلاده محطَّماً فاقد البصر ، وقد انتهت حياته السياسية تماماً..

أى أن النفى لم يكن مجرد إبعاد عن الوطن لفترة طويلة أو قصيرة ، بل كان حكماً بالسجن المؤبد أو الموت البطىء..

هذا ما حدث لأحمد عرابى ، وهو ما أراد الإنجليز أن يحدث لهؤلاء الأربعة ..

وإذا كان عرابى المسكين قد ذهب ولم يعد إلا حطاماً ، فلأن الأمة لم تكن قادرة على إنقاذه فى ذلك الحين ..

وإذا كان هؤلاء الأربعة قد عادوا من منفاهم ، فلأن الأمة ـ التى أيقظها سعد ـ كانت قادرة على تحطيم قيودهم واستعادتهم ..

وقد عرفت الأمة يوم القبض على سعد ماذا يراد بها .. كان القبض عليه فى فجر ٢٣ ديسمبر ١٩٢١م انتزعوه من فراشه ـ وكان فى الخامسة والستين ، مُتعَباً بل منهوك القوى ـ وأرادوا إخراجه إلى الطريق بملابس النوم ، فأبى إلا أن يرتدى ثيابه كاملة ، وزوجته «صفية» تعاونه وهى ـ من فيض دموعها ـ لا تكاد ترى شيئاً ..

ولا يدرى أحد كيف علم الشعب بالخبر..

إنه إحساس الشعب .. إلهام شبيه بما تحس به الأم عندما يصاب ابنها بمكروه وهو بعيد عنها ..

جماعات جماعات ، أقبل الناس طوال الليل ورابطوا فى زمهرير الشتاء حول بيت الأمة والمنافذ المؤدية إليه ..

ودافعهم الجنود بالرصاص ، وفى ظلام الليل روَّعت الطلقات أمن الناس فى مراقدهم ..

وفى سكون الليل أصيب جرحى وسقط قتلى ، حملهم أهلهم وواروهم التراب فى صمت ..

ومع أولى خيوط الفجر نزل الجنود الإنجليز يحيطون بالشيخ الذى كان ـ يومئذ ـ يمثل إرادة مصر .

ومن خلفه أتت صفية زغلول تجرى ، وتحاول انتزاعه من أيدى الجبابرة..

وفى وقار وثبات نظر إليها سعد وقال : «صفية ! ..أرجوك .. ما تبهدليش نفسك .. ما تبهدلينيش..».

فوقفت السيدة الجليلة ـ «أم المصريين» ـ فى مكانها ، وتركته لمصيره وهى تقول : «لا عاش من يبهدلك يا سعد»..

وسار إلى الطريق ، وسرح نظره فى الجماهير الحاشدة التى أتت لوداعه على غير موعد ..

وضجَّت الجموع بالبكاء ، وتعالت أصوات تخنقها العبرات : إلى أين يا سعد ؟ .. إلى أين يا سعد ؟..

وتحدَّرت الدموع على وجنتى الشيخ الجليل ، ورفع رأسه وهو يسير بين حرَّاسه إلى مصيره المجهول..

سار رابط الجأش ثابت الجنان بخُطًى متزنة ، ويده اليسرى فى جيب معطفه واليمنى تتحرك بعصاه حركة منتظمة ، كعهده دائماً ..

إلى المصير المجهول ذهب ، ومن المصير المجهول استعادته أمته . هل تذكر جنازة جمال عبد الناصر والجماهير الباكية التى أصرَّت يومها على أن تكمل المشوار ؟..

كما استعادت الأمة سعداً ، ستكمل المشوار ..

تلك أمتكم يا قوم !

مَنْ شكَّ فيها فهو ليس منها ، ما فى ذلك رَيْبٌ .

- **« مكرم عبيد » قصة نضال تنتظر من يكتبها :**

وهذه ليست أول مرة يرد فيها ذكر مكرم عبيد فى هذه الدراسات..

ولكنه كان عريقاً فى الجهاد فى سبيل مصر ، برغم صغر سنه إذ ذاك ..

أصله وعائلته من قنا ، درس الحقوق فى انجلترا ، وبعد عودته عمل مدرساً فى مدرسة الحقوق..

وانضم إلى صفوف المجاهدين منذ اللحظة الأولى ، واتصل بسعد فتكشَّفت مواهبه ، ولمس فيه سعد الحماسة والفصاحة وحدَّة الذكاء والإخلاص ، فاستدناه وأصبح من أقرب تلاميذه إليه حتى سمَّاه الناس « ابن سعد البار» ، وأصبح هذا لقبه المشهور به طوال حياة سعد ..

وعندما رأت السلطة البريطانية اتصاله الوثيق بسعد نقلته إلى وزارة الحقَّانية (العدل الآن) ، ولم يلبث أن استقال من خدمة الحكومة ليتفرغ للجهاد ..

كانت أسرته ذات ثراء ، وكذلك كانت زوجته عايدة ابنة مرقس حنا باشا ، فأنفقا معاً على الحركة الوطنية فى سخاء ..

وفى فترة الخلاف بين سعد وعدلى كان مكرم عبيد حركة دائبة لا تسكن ، كان يخطب فى المجتمعات ويدبِّج المقالات ويناقش فى دار نقابة المحامين .

كان قد قيَّد نفسه فى سجل المحامين ونذر وقته كله للدفاع عن المقبوض عليهم فى تهم سياسية . كان يتنقَّل من محكمة إلى محكمة ، ويعود آخر النهار إلى بيت الأمة فيظل فيه إلى ساعة متأخرة من الليل ..

يحكون أنه فى ذات ليلة لبس معطفه ليعود إلى بيته ، كان الوقت بعد منتصف الليل، وكانت الثورة على أشدها ، وجند الإنجليز يملأون الشوارع ..

ونظر إليه سعد ، فإذا مصطفى النحَّاس ينهض للخروج معه ..

فقال سعد : سيقتلونكما قطعاً .. ابقيا هنا إلى الصباح ..

فقال النحَّاس: أنا ومكرم شىء واحد .. نعيش معاً ونموت معاً..

وخرجا معاً ، واختفيا فى ظلام الليل..

كأنها كانت نبوءة ..

فعندما اختلف النحَّاس ومكرم ماتا معاً ، وهما على قيد الحياة !..

ومات الوفد أيضاً ..

***

خلَّف سعد وراءه فى مصر بقية أعضاء الوفد الذين ثبتوا معه ، وهم : حمد الباسل وويصا واصف وعلى ماهر وجورج خياط ومرقس حنا ومراد الشريعى وواصف بطرس غالى ، وقد استمروا فى العمل غير مكترثين بتهديد الإنجليز..

وفى ٢٥ يناير ١٩٢٢م قبضت عليهم السلطة الإنجليزية ، وحبستهم فى ثكنات قصر النيل ..

وفى الحال ظهرت الهيئة الوفدية الثانية ؛ كان تنظيم سعد محكماً . .

وكانت هذه الهيئة تتكون من : المصرى السعدى وحسين القصبى ومصطفى القاياتى ومحمد نجيب الغرابلى وسلامة ميخائيل وفخرى عبد النور ..

أربعة من المسلمين ، واثنان من الأقباط ..

ثم أفرجت السلطة عن أعضاء الوفد المعتقلين فى ثكنات قصر النيل فانضموا إلى إخوانهم الجدد ، فأصبح أعضاء الوفد الثانى ١٤ ، منهم ٨ من المسلمين و٦ من الأقباط.

إننى أنص دائماً على هذه الأرقام ، ليرى الناس كيف كان اتحادنا متيناً ..

واستمرت الثورة وازدادت عنفاً ، وازداد نشاط الفدائيين خلال الشهور الأخيرة من وزارة محمد توفيق نسيم المشئومة ، التى تعتبر من أسوأ حكومات عهد الاحتلال وأكثرها عداء للوطن وأهله ..

وبعد أن أُلقيت قنبلة على المعسكر البريطانى فى جزيرة بدران بشبرا فى ١٢فبراير ١٩٢٢م فقد الإنجليز السيطرة على أعصابهم ، ففرضوا غرامة قدرها ١٨٠٠جنيه على سكان المنطقة (وكلهم فقراء) وجمعوا الغرامة منهم بكل أساليب العنف ..

وفى ٢٠ فبراير ١٩٢٢م اقتحم الإنجليز بيت الأمة ، فأخذوا منه ما أرادوا من الأوراق ثم أغلقوه ..

واستدعى محافظ القاهرة أعضاء الوفد وأبلغهم نبأ إغلاق بيت الأمة ، وقال إنه يعتبرهم مسئولين ـ شخصياً ـ عن أى عمل يقوم به الفدائيون ..

وفى ٤ مارس أُلقيت قنبلتان على بعض الجنود فى ميدان الخازندار ، فاعتقل الإنجليز أعضاء الوفد وبعض أعضاء الحزب الوطنى ..

وعلى إثر ذلك تألفت الهيئة الوفدية الثالثة من : حسن حسيب وعلى الشمسى وحسين هلال ومصطفى بكير وإبراهيم راتب وعطا عفيفى وعبد الحليم البيلى وسلامة ميخائيل ، وأصدروا بياناً يحثُّون فيه الأمة على المثابرة على الجهاد ..

كان ذلك كله بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م ، الذى اعترفت فيه انجلترا ـ تبرعاً منها ولوجه الشيطان ـ باستقلال مصر ، ورفعت به صنيعتها (السلطان فؤاد) إلى مراتب الملوك ، فارتقى من « صاحب عظمة » إلى «صاحب جلالة »..

وفى أثناء ذلك ـ والمواطنون يُساقون إلى السجون ويُقتلون فى الشوارع والطرقات ، وسعد وأصحابه فى المنفى ـ كانت لجنة الدستور تعقد اجتماعاتها ، لتضع دستوراً لشعب يعيش فى الأغلال وخلف السدود والقيود ..

حقاً إن الاستعمار ذل وشر ..

ذل وشر عندما يأخذ ، وذل وشر أكثر عندما يعطى..

وكان الإنجليز يعملون على إيجاد هذا الدستور ـ دستور سنة ١٩٢٣م ـ ليكون لعبة فى أيديهم يصرفون به نظر المصريين عن الاستقلال .. قبل دستور ١٩٢٣م كان المصريون يطالبون بالاستقلال .. وبعد دستور٢٣ أصبحوا يطالبون بدستور١٩٢٣م !

وفى الوقت الذى اختاروا فيه يحيى إبراهيم ليؤلف الوزارة التى تمهِّد لتطبيق الدستور، كانوا يدربون أحمد زيور على عملية اختطاف الدستور الأولى ، ومحمد محمود على عملية اختطافه الثانية ، وإسماعيل صدقى على عملية اختطافه الثالثة..

وقد قدَّر الإنجليز ماذا سيحدث بعد ذلك .. فبعد تعب ونَصَب واضطهاد وجرى وراء الدستور .. وبعد انتخابات ومآسٍ ومهازل ، يكون اللاعبون جميعاً قد كلُّوا وملُّوا وطلبوا الراحة والأمان ..

وهنا ـ وبدون مناقشة طويلة ـ يوقِّعون جميعاً معاهدة ١٩٣٦م.. ويفرحون بها..

اقرأها ، ستجدها ـ مع تغيير شكلى ـ هى مشروع ملنر ، هى مشروع كيرزون ، هى مشروع ماكدونالد ، هى مشروع هندرسون .. مع تغيير وتعديل لفظى هنا وهناك ..

● دستورنا الأكبر « اتحادنا »:

ولكن شعبنا ـ على أى حال ـ جاهد وطاول وقاوم وصبر وصمد..

وقد قاوم وصمد لأنه كان متحداً ضد الاستعمار ورجاله ، وضد فؤاد ورجاله..

والذين كانوا فى المنفى كانوا مسلمين وأقباطاً ..

والذين كانوا فى السجون كانوا مسلمين وأقباطاً ..

وبعد الإفراج عن سعد فى ٢٠ مارس ١٩٢٣م ، تفتحت أبواب السجون فى مصر ، وخرج الأبطال المجاهدون ليبدءوا جولة جديدة من الجهاد ..

من «سيشل» وصل إلى مصر فى ١٩ يوليو١٩٢٣م مصطفى النحَّاس ويده فى يد مكرم عبيد ، وفتح الله بركات ويده فى يد سينوت حنا..

ومن سجون مصر خرج المصرى السعدى وفخرى عبد النور..

وخرج محمد نجيب الغرابلى يصاحبه راغب إسكندر .. وخرج عبد القادر حمزة ويده فى يد صادق حنين .. وهكذا ، خرجوا جميعاً إخواناً متحابين متعاونين ..

وهذا ـ فى رأيى ـ هو الدستور الأكبر ، لا دستور ١٩٢٣م..

دستور الاتحاد بين أهل مصر جميعاً : أقباطاً ومسلمين .. لأن وحدة مصر هى السد الهائل الذى يحمى مصر وكل عالم العرب .. إنها الدرع الواقى لعالم العرب الشاسع..

نعم ، ومكرم عبيد الذى عاد من المنفى فى ١٩ يوليو ١٩٢٣م وقف بعد عودته بأيام ـ فى أغسطس ١٩٢٣م ـ يخطب فى شباب شبرا ويقول لهم مهاجماً ما كان الإنجليز يسعون إليه ـ إذ ذاك ـ من الدسِّ لمصر والتفريق بين أهلها :

«... بقيت لى كلمة أخيرة عن تلك الدسيسة المنكرة التى يقوم بها المستعمرون للتفريق بين المسلمين والأقباط ..

يقولون : أقباط ومسلمون ، كلاَّ .. بل قولوا لهم : هم مصريون ومصريون .. آباء وأمهات وبنون..

أو قولوا لهم : إخوة ، لأنهم بدين مصر يؤمنون..

أو أشقاء ، لأن أمهم مصر ، وأباهم سعد زغلول ..

أيُقال هذا القول فى مصر ، وعن مصر ، التى علَّمت العالم ـ والشرق خاصة ـ معنى الاتحاد المقدَّس ، حتى إن الهنود فى «ممباسا» كانوا يقولون لنا : إن مصر أستاذة الهند ومثلها الأعلى فى اتحاد طوائفها ؟!

وإنى لأذكر أنه فى وقت خروج المنشقين من الوفد ، دبَّ الضعف فى نفسى وذهبت مع بعض أصدقائى وقلت للرئيس: إنه لا يصح أن تكون الأغلبية فى الوفد من الأقباط! .. فغضب الرئيس كل الغضب وقال: ماذا تقول ؟ إنى لا أعرفك أنت ولا إخوانك كأقباط .. بل أنتم مصريون وكفى ..

قولوا لهم: عبثاً تحاولون فصم وحدتنا ، فقد جمعتنا دماء آبائنا التى تجرى فى عروقنا، ودماء أبنائنا التى جرت فى شوارعنا ..

عبثاً يذكِّروننا بانقسام مضى ، فقد غسلناه بدموعنا..

عبثاً يقولون : هم أقباط ومسلمون فى وفدهم أو برلمانهم ، فقد كنا ـ ولا نزال ـ مصريين فى سجوننا..

عبثاً يفرِّقون بين آمالنا ، فقد اتحدت آلامنا..

عبثاً والله .. كله عبث ، فقد اكتشفنا سر الحياة : الإخلاص .

وما اتحادنا إلا اتحاد قلوبنا ونفوسنا ومشاعرنا ..

ولن يفصلها فاصل بعد أن جمعها الواحد القهار ..».

***

هذا ما قاله مكرم عبيد سنة ١٩٢٣ م ..

نعم ، وماذا قال جمال عبد الناصر للصحفى الذى طلبت إليه صحيفته أن يسافر من فنزويلا إلى مصر ، ليحقِّق أمر العجيبة التى سمعوا بها ، وهى أن جمال عبد الناصر ـ زعيم مصر المسلم الشاب ـ أمر ببناء كنيسة ؟

قال :

ـ كنيسة واحدة ؟ .. ولماذا واحدة فقط؟!.. هذا بلد المصريين ـ مسلمين ومسيحيين ـ من مئات السنين .. الحكومة ليس لها أن تصرِّح أو لا تصرِّح ببناء مساجد وكنائس .. من أراد أن يبنى مسجداً فليبنِ مسجداً ومن أراد أن يبنى كنيسة فليبنِ كنيسة .. فالمسجد مصرى ، والكنيسة مصرية .. نحن نقول : الدين لله والوطن للجميع.. هذا أهم شعاراتنا .. ألم تقرءوه أبداً !.

***

والسلام على من اتبع الهدى

- **ونهض شباب السودان للدفاع عن وحدة وادى النيل :**

صدر الدستور فى ١٩ أبريل ١٩٢٣م..

صدر بعد جهاد حقيقى مع الملك فؤاد ، الذى حاول ـ مستعيناً برئيس وزرائه محمد توفيق نسيم ـ أن يجعله دستوراً ملوكياً ، هدفه الأساسى أن يحيط الملك وأسرته وأمواله بالرعاية الكاملة حتى تصبح مصر ومن فيها ضيعة له ، بحكم الدستور ..

صدر كسيحاً مشوَّهاً .. وزفَّه يحيى إبراهيم إلى الشعب بمقدمة ، هى فى الواقع صلاة على روح الدستور ..

وبدأت اللعبة المشئومة التى وضع الإنجليز قواعدها ..

وبدأ الإفراج عن المعتقلين والمنفيين ابتداء من ٣٠ مارس ١٩٢٣م.

وفى ١٧ سبتمبر ١٩٢٣م عاد سعد وأصحابه من المنفى .

وفى ٢٨ يناير ١٩٢٤م تألفت وزارة سعد زغلول ، الأولى والأخيرة ..

فرض عليه الملك أن يأخذ معه فى الوزارة ثلاثة من خدمه وخدم الإنجليز : محمد توفيق نسيم ومحمد سعيد وأحمد مظلوم .. وتركوا له ست وزارات يضع فيها من يشاء ، فاختار حسن حسيب وفتح الله بركات ومصطفى النحَّاس ومحمد نجيب الغرابلى ومرقس حنا وواصف بطرس غالى.

وقد لوحظ أن سعداً اختار لوزارته اثنين من الأقباط ، بينما جرت التقاليد بأن يكون فى الوزارة قبطى واحد ، فقال سعد كلمته الخالدة : « هذه وزارة الثورة .. وعندما كان الإنجليز يطلقون علينا الرصاص لم يراعوا نسبة الأقباط إلى المسلمين ... ».. إلى آخر هذه العبارة الجميلة ..

وسارت وزارة سعد فى طريقها الحافل بالعقبات ..

وحسب البريطانيون أن المصريين قد شُغلوا بأنفسهم ، وأن الوقت قد حان لفصل السودان عن مصر ، أى : تعويض ما خسروه فى مصر من ظاهر السلطان بتحويل السودان إلى مستعمرة صِرْفة..

وكان التمهيد لذلك حذف المواد الخاصة بالسودان من الدستور..

وكانت أصداء الثورة المصرية قد انتقلت إلى السودان ، ونهض شبابه ليضعوا أيديهم فى أيدى إخوانهم المصريين .

وفى سنة ١٩٢٠م تألفت فى الخرطوم «جمعية الاتحاد» .

وفى سنة ١٩٢٢م قام الضابط السودانى الباسل «على عبد اللطيف» بحركته الصادقة التى نادى فيها بوحدة مصر والسودان ، فكان جزاؤه أن قُبض عليه وقُدِّم لمحكمة الجنايات فى الخرطوم وحكم عليه بالسجن سنة..

وما كاد سعد يتسلم مقاليد الحكم حتى بدأ يوجِّه اهتمامه إلى شئون السودان ، فاحتج على تمثيله فى معرض ويمبلى الذى أُقيم للمستعمرات البريطانية .

وفى يونيو ١٩٢٤م بدأ الاحتكاك الحقيقى الحاسم بين سعد والإنجليز بشأن السودان وتكلم سعد فى البرلمان مقرِّراً تمسُّكه بوحدة مصر والسودان .

وفى الشهر نفسه تكونت فى السودان «جمعية اللواء الأبيض» ، للمحافظة على وحدة وادى النيل .

ثم تلت ذلك مظاهرات ضخمة ، شبيهة بمظاهرات مصر سنة ١٩١٩م..

وعادوا إلى القبض على «على عبد اللطيف» ، وحكموا عليه بالسجن ثلاث سنوات ثم عشر سنوات أخرى فى قضية تالية..

رحم الله على عبد اللطيف ، فقد ظل طول عمره مجاهداً فى سبيل وحدة وادى النيل ، حتى توفى فى القاهرة فى نوفمبر ١٩٤٨م.

ويوم وقف سعد هذا الموقف من السودان ، قررت الحكومة البريطانية إبعاده عن الحكم بأية وسيلة..

وكانت الوسيلة التى اختاروها هى مصرع السير لى ستاك سردار (أى : قائد عام)

الجيش المصرى وحاكم السودان فى ١٩ نوفمبر ١٩٢٤م !

وفى دراسة أخرى سنلقى ضوءاً جديداً على هذه الجريمة ، ونثبت بالبرهان الساطع أن الإنجليز هم الذين دبَّروا اغتيال رجلهم هذا ، للقضاء على وحدة وادى النيل ..

وفى ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤م تألفت وزارة أحمد زيور ، وكان شعارها التسليم للإنجليز بكل ما يطلبون..

وفى ٢٤ ديسمبر ١٩٢٤م حُلَّ مجلس النُّوَّاب..

وعدنا إلى الحالة التى كنا عليها قبل صدور الدستور..

وعرفنا حقيقة تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م ، والاستقلال الذى أعلنوه فيه..

وعندما وصل إلى القاهرة لورد جورج لويد مندوباً سامياً ـ خلفاً للجنرال أللنبى ـ قوبل مقابلة الملوك ، وتصرَّف هو تصرُّف أولاد الملوك ..

ولم يعرف تاريخنا مع الاستعمار مندوبين سامين فى صبيانية جورج لويد ، وبرسى لورين من بعده ، ثم مايلز لامبسون ، وهو آخر أطفال الأرستقراطية البريطانية الذين أرادوا العبث بمصر ، فلم يعبثوا إلا بمن قبل أن يجعل من نفسه أداة أو موضعاً لعبثهم..

أما شعب مصر فقد عامل أولئك الجبابرة الصغار بكل احتقار ..

وبينما كان المستوزرون وصغار النفوس من أصحاب الألقاب أو الطامعين فيها ينحنون أمام «جورج لويد» كان محمد التابعى ـ الكاتب السياسى الأول إذ ذاك ـ والدكتور سعيد عبده ـ شاعر مصر السياسى الذى لا يضارع فى ميدان الزجل السياسى ـ كانا « يمسحان البلاط » ـ كما نقول ـ باللورد جورج لويد والسير برسى لورين ، ومن جرى وراءهما من الضعاف وصغار النفوس ، مستعينين فى ذلك بأستاذ الرسم الكاريكاتيرى الذى لا يُنسى إدواردو سانتيس ، وهو إسبانى ..

• وعادت الأمة إلى ميدان الصراع من جديد:

ومن أسف أن صغار النفوس كثروا فى تلك الأيام ..

كثيرون جداً تعبوا بعد كفاح قليل لا يذكر، وكثيرون آخرون ظنوا أن قضية الاستقلال قد سُوِّيت ، بصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م وانتقال صاحب العظمة إلى مراتب ذوى الجلالة ..

وبينما كان أحمد زيور ـ وأمثاله من موالى الإنجليز ـ يجتهدون فى تصفية القضية ؛ بالتسليم المطلق للإنجليز ، بقى فى الميدان نفر من قادة المصريين ، متمسكين بالحق سائرين فى طريق الكفاح ، وعلى رأسهم سعد زغلول ـ وهو يخطو نحو السبعين ، ولكنه صلب كشجرة سنديان ـ وحوله رجاله : مصطفى النحَّاس وسينوت حنا ومكرم عبيد وفتح الله بركات وأخوه عاطف ومحمود فهمى النقراشى وأحمد ماهر ومن إليهم.

وبقى فى الميدان أيضاً رجال الحزب الوطنى : الرافعيَّان أمين وعبد الرحمن ، والصوفانيَّان عبد اللطيف وعبد العزيز ، وعبد الحميد سعيد ، ونفر من الأحرار الدستوريين أكبرهم عبد العزيز فهمى.

فى تلك الأيام كان منظر المسرح السياسى عجيباً فريداً ..

ملك مصر ورئيس وزرائه أحمد زيور والمندوب السامى يعملون ضد مصر .. والوفديون والحزب الوطنى ونفر من كبار المصريين يقفون إلى جانب مصر وشعبها وأمانيها .

ملك مصر ورئيس وزرائه والمندوب السامى يصدرون أوامر يكبِّلون بها مصر ، التى لم تكد تشم نسيم الحرية حتى أغلقوا عليها النوافذ والأبواب .. يصدرون قانوناً يحرِّم الاجتماعات ، وآخر يضع فى أقدام الكتَّاب والصحفيين كرات ضخمة من الحديد ..

ومع ذلك يتطلع الملك فؤاد إلى الخلافة ! ويأمر بفصل الأستاذ على عبد الرازق من سلك القضاء لأنه أصدر بحثاً يقول فيه إن الخلافة ليست عنصراً أصيلاً فى بناء جماعة الإسلام ، ثم أخرجه من زمرة العلماء فى أغسطس ١٩٢٥م..

ويحتج عبد العزيز فهمى على ذلك فيطرد من الوزارة .

وصاحبنا الملك فؤاد ـ المتطلع إلى الخلافة ـ يأخذ من مصلحة الأملاك الأميرية «تفتيش بشبيش» ، ويعطيها بدلاً منه «قصر الزعفران» لتستعمله الحكومة قصر ضيافة لضيوف جلالته ، أى أنه يسرق «تفتيش بشبيش» سرقة صريحة..

وأصحابنا « العلماء » الذين أخرجوا من صفوفهم على عبد الرازق ـ امتثالاً لأمر جلالته ـ يحتفلون ... ولكن ، معذرة !.. لندع هذه .. عسى ربك سبحانه أن يكون قد

غفر لمن تاب عليه منهم ..

ويجىء نوفمبر ١٩٢٥م وفى البلاد برلمان معطَّل بأمر إدارى ، ولكنه متمسك بحقه فى الاجتماع فى السبت الثالث من نوفمبر دون استئذان الحكومة ..

ولكن الحكومة تحظر عقد الاجتماع ، وتغلق أبواب المجلس بالسلاسل الحديدية وتحرِّمه على رجال الأمة وممثليها..

وفجأة ، فى صباح يوم السبت ٢٠ نوفمبر١٩٢٥م يجتمع البرلمان فى «فندق الكونتنتال » ..

هنا نجد رجال مصر الأحرار ـ مسلمين وأقباطاً ـ يعلنون إرادة مصر ، ويقررون أنها فوق إرادة الملك والمندوب السامى ورئيس وزرائه جميعاً ..

هنا نجد ـ بين عشرات النوَّاب والشيوخ ـ خيرة الأقباط : سينوت حنا ومكرم عبيد وويصا واصف ونجيب إسكندر وجورج خياط .. إلى آخر كتيبة المجاهدين من إخوتنا الكرام ..

بل نجد بشرى حنا ..

لقد عاد بشرى إلى الصفوف بفضل سينوت المكافح الصامت ..

ومما يلفت النظر أن سعداً ـ عندما رشَّح رجالاً من الوفديين للوزارة الائتلافية التى رأسها عبد الخالق ثروت ـ رشَّح سينوت ليكون وزيراً ، فزهد فى المنصب ورشَّح مكانه مرقس حنا .

وفى الثالث والعشرين من أغسطس١٩٢٧م توفى سعد زغلول وهو فى الحادية والسبعين من عمره ، فقد ولد سنة ١٨٥٦م فى بلدة «إبيانة» ـ مركز فوة (بمحافظة كفر الشيخ اليوم).

وانتهى بموته مجلد ضخم من تاريخ جهاد مصر فى سبيل الحرية والكرامة.

- **«وزارات الانقلاب» إنما هى أحكام بتوقيع عقوبات على شعب مصر:**

وفى ١٧ مارس ١٩٢٨م بدأ مجلد من تاريخ جهاد مصر يحمل على غلافه اسم : مصطفى النحَّاس ..

فى ذلك اليوم تألفت وزارة مصطفى النحَّاس الأولى ، وفى تلك الوزارة نجد واصف بطرس غالى وزيراً للخارجية ومكرم عبيد للمواصلات .

وكان مكرم قد انتُخب سكرتيراً للوفد بعد موت سعد زغلول .

وانتُخب ويصا واصف لرئاسة مجلس النواب .

وكان ويصا من تلاميذ سعد الذين تربَّوا فى مدرسته ، مثله فى ذلك مثل سينوت حنا ومكرم عبيد ، وقد أثبت أنه ـ بالفعل ـ جدير بالثقة التى أولته الأمة إياها..

قبل دخوله الوفد كان من رجال الحزب الوطنى البارزين ، وكان قانونياً مشهوداً له بالكفاية ، وبيته فى أسيوط عريق مشهور.

ومنذ البداية بدا وكأن فؤاداً وجورج لويد أخطآ تقدير النحَّاس ، وكان ذلك منهما خطأ جسيماً ..

لأن مصطفى النحَّاس ـ حتى زواجه من السيدة زينب الوكيل ـ كان رجلاً عظيماً جديراً بالأمانة التى حملها ..

وبعد زواجه منها بدأ ينحدر .

ولا نزاع فى أن دخول هذه السيدة ميدان السياسة ـ عن طريق الزواج بمصطفى النحَّاس ـ كان كارثة على النحَّاس وعلى الوفد وعلى مصر ، بل على عالم العرب كله.

فلننظر الآن فيما جرى أيام وزارة النحَّاس الأولى ، أيام السعود ..

قلنا إن فؤاداً وجورج لويد استخفَّا به ..

وقد أدى بهما هذا الاستخفاف إلى الوقوع فى أخطاء جسيمة ، كانت قاضية عليهما كليهما فى النهاية ..

وفؤاد كبرت شخصيته ـ بالفعل ـ وهو ينافس سعداً ، كما يرتفع مقام ملاكم صغير عندما يتحدى بطلاً..

ولكنه عندما مات لم يحزن لوفاته أحد ، لأنه ـ بالفعل ـ فقد بعد وفاة سعد ذلك التماسك الذى حفظ عليه شيئاً من المهابة..

فقد ذلك التماسك وجرى فى أعقاب جورج لويد ، ذلك الدبلوماسى الإنجليزى

الغرّ، الذى يمثل أتفه لون من ألوان الاستعماريين ..

وأقدم على العبث بالأمة مستعيناً بمحمد محمود مرة ، وبإسماعيل صدقى أخرى .. ولا يدرى أحد لماذا أراد كل من هذين الرجلين أن يبطش بالأمة التى أنجبته ويعذِّبها ، كأن هذه الأمة لم يكفها بطش الأعداء فجاءها البلاء من ناحية بعض أبنائها !..

فى أثناء هذه العواصف كلها ، كان النحَّاس يعتمد اعتماداً شديداً على أنصاره الذين تكشَّفوا عن رجال بمعنى الكلمة ، ثبتوا وصبروا وصابروا وقادوا الأمة فى الطريق السليم ..

وتبدأ القصة برفض الأمة لمشروع معاهدة « ثروت ـ تشيمبرلين » فى ٤ مارس ١٩٢٨م..

وقرر فؤاد وجورج لويد عقاب هذه الأمة !

وبدأ ذلك عقب تولِّى مصطفى النحَّاس وزارته الأولى ..

ففى ٤ مارس ـ أيضاً ـ أرسل المندوب السامى مذكرة إلى وزارة ثروت ، يحذرها فيها من التدخل فى أى موضوع يمس سلطان بريطانيا على مصر..

ووجد النحَّاس هذه المذكرة على مكتبه عندما تولَّى الوزارة ، فرفضها.

وفى ٢٩ مارس ١٩٢٨م أرسل المندوب السامى إنذاراً للوزارة ، طالباً سحب قانون الاجتماعات الذى كان معروضاً على البرلمان ..

ورفض النحَّاس هذه المذكرة أيضاً ..

وفى يونيو ١٩٢٨م اتُّهم مصطفى النحَّاس ووبصا واصف وجعفر فخرى ، بأنهم ظلوا وكلاء عن الأمير سيف الدين فى قضية رفع الحجر عنه ، بعد أن تولَّى مصطفى النحَّاس رئاسة الوزارة..

وفى ٢٥ يونيو ١٩٢٨م أُقيل النحَّاس ، وبعد ذلك بيومين تألفت وزارة محمد محمود ..

وفى ١٩ يوليو ١٩٢٨م حُلَّ البرلمان وعُطِّل الدستور ..

وأصر البرلمان المصرى على أن يتحدى انجلترا ومندوبها السامى وفؤاداً ورئيس وزرائه محمد محمود ، واعتبر قرارى تعطيله وحلِّه باطلين وملغيين. .

وفى مساء السبت ٢٨ يوليو اجتمع البرلمان فى دار مراد الشريعى بشارع محمد على (القلعة الآن) ، وقرر أن الحكومة خارجة على الدستور وأن المجلس لا يثق فيها وأنها ـ لهذا ـ ينبغى أن تتخلى عن الحكم..

وفى ٢٩ يوليو١٩٢٨م ألقى السير أوستن تشيمبرلين وزير الخارجية البريطانية كلمة فى مجلس العموم قال فيها ـ بصراحة ـ إن انجلترا تعاقب مصر على رفضها مشروعه الذى كان قد اتفق عليه مع عبد الخالق ثروت ..

وفى السبت الثالث من نوفمبر١٩٢٨م عاد البرلمان إلى الاجتماع بدار جريدة «البلاغ» .

وبذلت وزارة محمد محمود غاية وسعها فى الانتقام من الشعب الذى رماها عن يد واحدة .. وبينما كان محمد محمود يسير فى طريقه حاسباً أنه يزداد من رضا الإنجليز يوماً بعد يوم ، إذا بالحكومة الإنجليزية تقيل صاحبه جورج لويد..

وكما هى العادة ، كانت لمحمد محمود مفاوضاته .. دارت هذه المرة مع المستر هندرسون وزير الخارجية البريطانية .. وكما هى العادة ـ أيضاً ـ مع حكومات الاستبداد لم تؤدِّ المفاوضات إلى شىء .. وكانت إيذاناً بنهاية تجربة محمد محمود ، فاستقال فى ١٢أكتوبر ١٩٢٩ م.

• الوطنية ديننا ، والاستقلال حياتنا :

وكما يحدث فى كل الأوقات التى يشتد فيها الصراع بين مصر وأعدائها ، يظهر ما يسمُّونه بالخلاف بين المسلمين والأقباط فى مصر ..

فتنة تطل برأس الحية بين الحين والحين ، يحركها خصوم مصر والمصريين على أمل إضعاف جبهة مصر وإرغامها على الاستكانة والتسليم..

ظهرت عندما دخل الفرنسيون مصر ، وكان أداتها ـ إذ ذاك ـ ذلك الجنرال التعيس يعقوب ، وقد حكينا ما كان من أمره..

وظهرت سنة ١٩١٠ و ١٩١١م ، عندما اشتدت معارضة الحزب الوطنى وتحرَّج مركز الاحتلال فى مصر فى أعقاب مذبحة دنشواى وعزل اللورد كرومر ، وقد روينا خبرها أيضاً..

وظهرت سنة ١٩٢١م ، عندما وقع الخلاف بين سعد وعدلى على قيادة المفاوضات، وقد رأينا الموقف الحاسم الذى وقفه منها مكرم عبيد..

وها هى ذى تظهر سنة ١٩٢٨م ، كجزء من العقاب الذى كانت انجلترا تصبُّه على مصر وأهلها ، لترغمهم على التسليم بمطالبها وتوقيع معاهدة معها تعترف فيها بالاحتلال ..

فقد ظهرت ـ إذ ذاك ـ فى بعض الصحف مقالات صفراء ، تتحدث عن سخط الأقباط ومطالبتهم بحقوق أو ضمانات معينة..

من ذلك مقال نشرته صحيفة « مصر » ، تحدثت فيه عن الموظفين الأقباط ، وزعمت أنهم مضطهدون ومظلومون ، وأنهم لا ينالون حقوقهم..

وهنا تصدى للفتنة سينوت حنا المخلص الصادق ، فكتب فى « البلاغ » مقالاً ضافياً عنوانه « الوطنية ديننا ، والاستقلال حياتنا ».. جاء فيه :

«لا قبطى ولا مسلم ، وإنما كلنا أمام الوطن مصريون ..

وما هذه الضجة ـ التى ثارت فى الأيام الأخيرة ، باسم الأقباط المضطهدين فى بعض الوظائف ـ إلا أثم فى حق الوطنية وحق الحكم الدستورى، كما هى إثم فى حق الواقع. وإنه ليكفى الإنسان أن يذكر أولئك الشهداء الذين جادوا بأرواحهم ـ مسلمين وأقباطاً ـ فداء للوطن المصرى ، لا للوطن المسلم أو الوطن القبطى ، حتى يشعر بما فى ذلك من الجلال والسمو»..

وكان سينوت حنا يعرف أنها دسيسة ، وأن المراد منها الإضرار بمصر وأهلها جميعاً..

● وانضم المبشرون إلى صفوف أعداء الوطن:

وبعد ذلك بقليل وقع ما أثبت صدق نظره ..

فقد روى الأستاذ محمد سيد كيلانى ـ فى كتابه القيِّم الآنف الذكر عن الأدب القبطى ـ أن المبشِّر الأمريكى زويمر ذهب فى يوم من تلك الأيام إلى الجامع الأزهر ، فى زى طلبة العلم ، واندسَّ فى إحدى حلقات الدروس . .

وزويمر هذا كان صعلوكاً ينسب نفسه إلى الدين والعلم ، وهو ـ فى الحقيقة ـ جاسوس خبيث تنفق عليه جماعة دينية فى ولاية كونيكتكات الأمريكية Connecticut، وكان يحتمى بالسفارة الأمريكية ويكتب مقالات فى مجلة تسمَّى «العالم الإسلامى The Moslem World» ما زالت تصدر إلى الآن فى مدينة هارتفورد بالولاية المذكورة يطعن فيها على الإسلام دون حياء أو خجل ..

ومثله فى هذا مثل صاحبه الأب اليسوعى هنرى لامانس ، الذى كان يقوم بعمل مشابه فى بلاد الشام ، قبل أن تُقسَّم إلى سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ..

اندسَّ زويمر بين الطلاب ، ثم دخل فى حديث مع طالب وتناول كتبه ينظر فيها ، ثم أعادها إليه بعد أن دسَّ بينها رسائل من تأليفه فى الطعن على الإسلام ، طبعها فى مطبعة إحدى الجمعيات القبطية..

وكان غرضه الخبيث من ذلك أن تقوم الفتنة بين المسلمين والأقباط ما دامت الرسائل قد طُبعت فى مطبعة قبطية..

ولكن لم يلبث أمر الدسيسة أن انكشف..

ونشرت الصحف مقالات لنفر من علماء الأزهر ، يستنكرون فيها عمل المبشِّر الخسيس..

ونشرت « البلاغ » مقالاً عنيفاً لكاتب قبطى ـ هو «كليم أبو سيف» ـ بعنوان «المبشِّرون » قال فى بعض فقراته :

«عجيب أمر هؤلاء المبشِّرين ، فهم ـ برغم أننى أستطيع أن أقسم على أنهم لا دين لهم ـ ما زالوا يرتكبون باسم الدين كل المنكرات والمحرَّمات التى ينهاهم عنها الدين ، وهم ما زالوا يتمادون فى صفاقتهم وتحدِّيهم لشعور المصريين ـ بتلك الأعمال ـ تمادياً لا أظن أناساً رُزقوا شيئاً من الحياء أو الأدب يستطيعون إتيانه وتحمُّل مسئوليته ..

أنتم أيها المبشِّرون لا أكثر من جواسيس للاستعمار .. أتيتم إلى هذه البلاد لا لنشر فضيلة دين معين ، بل لاتِّباع سياسة شريرة موحى بها من جهات معينة . ومن نتائج هذه السياسة وقوع الخلاف بين المصريين ، والشقاق بين أبناء الأسرة الواحدة...

إذن : أنتم لستم مبشِّرين تحثّون على التحلّى بالفضيلة .. إنما أنتم مجرمون تتخذون الدين ذريعة لارتكاب المنكرات وأنتم تعلمون » .

• وعدنا إلى كرسى التعذيب مرة أخرى !:

وجاءت وزارة عدلى يكن الثانية لتمهِّد لعودة الحياة النيابية..

تألفت فى ٤ أكتوبر١٩٢٩م ، من وجوه قديمة ذات تقاطيع تركية أو شركسية ، كانت راقدة فى أضابير عهد الحماية والاحتلال ، ثم خرجت لتستنشق شيئاً من الهواء وتعود إلى أضابيرها فى سلام فى ٣١ ديسمبر ١٩٢٩م.

وقامت وزارة النحّاس الثانية فى أول يناير ١٩٣٠ م..

إلى جانب النحّاس نجد واصف بطرس غالى ومكرم عبيد ، وللمرة الأولى يدخل محمود فهمى النقراشى الوزارة..

ونلاحظ أن مكرم عبيد انتقل إلى وزارة المالية ، وهو انتقال جلب عليه المتاعب فيما بعد .. وليته بقى فى وزارة المواصلات ..

وعندما اجتمع مجلس النواب الجديد انتخب ويصا واصف رئيساً له ، أما رئيس مجلس الشيوخ فكان عدلى يكن .

وفى ٢٠مارس ١٩٣٠م بدأت مفاوضات مصطفى النحّاس مع هندرسون..

وكان الإنجليز يحسبون أنهم أعطوا هذه الأمة درساً قاسياً على يد محمد محمود ، وأنهم ، أى : المصريين ـ لهذا ـ لابد قابلون ما رفضوه قبل إنزال العقاب ..

ولكن المحادثات دلّت على أن الأمة ما زالت قوية البنيان ثابتة فى مكانها كشجرة سنديان ضخمة..

وعلى صخرة تمسُّك مصر بالسودان تحطمت المفاوضات ..

وقال الإنجليز: لابد من جولة جديدة من التعذيب ..

وبدأت طلائع الإيقاع بوزارة النحّاس بعريضة رفعها الأحرار الدستوريون ـ الذين فعلوا بالأمة الأفاعيل أيام وزارة محمد محمود ـ يضرعون فيها إلى «المليك المفدّى » أن يتلافى الأمر بحكمته ...

وتفضَّل المليك المفدَّى بالاستجابة للضراعة .. واستقالت وزارة النحَّاس الثانية فى ١٧ يونيو ١٩٣٠م.

• وكلما زادت المحنة زدنا تماسكاً :

وقامت وزارة إسماعيل صدقى فى ٢٠ يونيو ١٩٣٠م..

كانت محنة جديدة أريد منها استعمال أقسى وسائل العنف لتحطيم بنيان الأمة الذى زادته المحن السابقة صلابة وتماسكاً ..

وأعتقد أن القارئ يتذكر الكثير من بشاعات هذه الوزارة وأعمالها ، مما يغنينا عن الإعادة والتفصيل ..

وفى الظلام الدامس الذى ساد مصر خلال هذه الفترة ، وقعت ثلاث حوادث تدخل فى صميم موضوع هذه الدراسة من وحدة المصريين :

الحادثة الأولى هى ما سعى إليه المندوب السامى الجديد ـ وهو السير برسى لورين ، ولم يكن أحسن حالاً من سابقه جورج لويد ـ مرجعنا فيها بحث لمؤرخ مستشرق أمريكى من أصل أرمنى يسمَّى إدوارد فلافيان ، عن المندوبين السامين فى مصر ، من بعد تصريح ٢٨ فبراير إلى توقيع معاهدة ١٩٣٦م.

وملخَّص الخبر أن السير برسى لورين عندما وصل إلى مصر مندوباً سامياً ـ خلفاً للورد جورج لويد فى صيف ١٩٢٩ م ـ رأى أن يجرب بصورة جدية سلاح التفريق بين المسلمين والأقباط ، كوسيلة لتحطيم الحركة القومية فى مصر بصورة نهائية..

بدأ باتصالات شخصية مع توفيق دوس ونخلة المطيعى ، وكان وزيراً للزراعة فى وزارة محمد محمود ، فلم يرحِّبا بالفكرة أول الأمر .

ثم جدَّد محاولته مرة أخرى بعد تأليف وزارة إسماعيل صدقى فى يونيو ١٩٣٠م ، وكان توفيق دوس وزيراً للمواصلات فيها . وسمع بذلك بطريرك الأقباط فاستاء استياء شديداً ، وخاف مغبة السير فى ذلك الطريق الخطر ، فأرسل رسولاً إلى توفيق دوس يرجوه أن يكفَّ عن السير فى هذا الضلال ، ثم استدعاه إليه وحذَّره تحذيراً شديداً ، وأفهمه أنه لو تقدَّم بأى مشروع فى هذا الاتجاه فإنه ـ أى: البطريرك ـ سيعقد المجلس ويعلن براءة الأقباط جميعاً من ذلك العمل ..

وعلى إثر ذلك قاطع كبار الأقباط توفيق دوس ، وظل فى عزلة تامة حتى استقال من وزارة صدقى .

والحادثة الثانية هى الموقف الجليل الذى وقفه ويصا واصف ، رئيس مجلس النواب الذى حلَّه محمد محمود فى ١٩يوليو ١٩٢٨م ، ثم عاد إلى الوجود فى أثناء وزارة النحَّاس الثانية على إثر انتخابات ديسمبر ١٩٢٩م.

فقد كان صدقى قد بدأ بتأجيل انعقاد البرلمان شهراً بقرار أصدره فى٢١ يونيو١٩٣٠م ، وكان من المقرر أن يجتمع البرلمان بعد ذلك بيومين ، وأعلن رئيسا المجلسين عزمهما على الاجتماع . فأرسل صدقى إلى ويصا فى ٢٣يونيو١٩٣٠م يأمره بألا يتم ذلك الاجتماع ، فردَّ ويصا واصف فى اليوم نفسه مؤكداً للطاغية أنه ليس من حق الحكومة أن توجِّه هذا الخطاب إلى رئيس مجلس النواب .

وعقب ذلك أمر صدقى ـ وكان وزير الداخلية ورئيس الوزراء معاً ـ بإغلاق دار المجلس بالسلاسل وإحاطتها بالجند . وحضر ويصا واصف والنواب ، فأمر قائدَ بوليس البرلمان بتحطيم السلاسل ، ودخل النواب إلى قاعة المجلس ، وجلس ويصا واصف على منصة الرياسة توكيداً لسيادة الدستور ونواب الأمة ، وأصدر المجلس قراراً باحتجاجه على تصرُّف الحكومة بإغلاقها المجلس ، وباستنكاره عدوانها على الدستور..

فى ذلك اليوم ـ ٢٣ يونيو ١٩٣٠م ـ ارتفع ويصا واصف إلى مصافِّ رجال مصر الخالدين : لقد تحدَّى الحكومة التى وراءها الملك والمندوب السامى ..

وفى الوقت نفسه أرسل عدلى يكن ـ رئيس مجلس الشيوخ ـ إلى الحكومة احتجاجاً شديد اللهجة..

والحادثة الثالثة هى وقوف سينوت حنا أمام القوة الغاشمة فى « المنصورة » ، ليحمى بصدره مصطفى النحَّاس من حراب جنود كان صدقى قد أوعز إليهم بقتل النحَّاس ، فى أثناء زيارته لعاصمة الدقهلية فى جولة سياسية كان يقوم بها تحدِّياً لصدقى والملك والإنجليز .

كان النحَّاس واقفاً فى سيارته يردُّ تحية الجماهير ، وإلى جانبه سينوت ..

واندفع جنود بالحراب ليطعنوا النحَّاس فى ظهره .. وفى لمح البصر قفز سينوت

وتلقَّى الحراب بذراعه..

ونكتفى بهذه الصور الثلاث التى تبين جانباً من الدور الوطنى العظيم الذى قام به إخواننا فى الوطن ، فى أثناء السنوات السود التى خاضت مصر خلالها معارك مريرة حافلة بالدماء والمآسى والآلام ..

إن قارئ تاريخ مصر يرى أننا بنيناها معاً . .

مسلمين وأقباطاً أنشأنا هذا الوطن الأعزَّ ..

من يوم دخل عمرو بن العاص مصر ووضع يده فى يد المقوقس ـ ذلك المصرى الجليل الذى خاطبه النبى ﷺ بقوله : « إلى عظيم القبط » !... وحيَّاه فى آخر الخطاب بقوله : «والسلام على من اتبع الهدى» ـ من ذلك اليوم تحالف العرب مع قبط مصر ـ يمثلهم المقوقس ـ على الروم وكان يمثلهم قيرس ذلك الأجنبى الطاغية ، الذى أرسله هرقل ليعاون القائد تيودور على اضطهاد أهل مصر ..

لقد طالما خلطوا بين المقوقس وقيرس ، والفرق بين الاثنين جسيم .. فالمقوقس عظيم القبط مصرى صميم من الدقهلية فى الأغلب ، فقد عثرنا له على أسرة وأقارب هناك وفى نواحٍ أخرى من مصر . وابنته هى أرمانوسة المصرية ـ تلك الراهبة الحلوة التى خلَّدها جورجى زيدان بقصته المشهورة ـ تعتبر نموذجاً للمصرية الجميلة العفيفة المؤمنة..

لقد أحب العرب المقوقس قبل الإسلام . كان تجارهم يسمُّونه القسّ . وكان يعرج عرجاً خفيفاً فدلَّلوه بقولهم « المقوقس » ، كما دلَّلوا بنيامين أسقف مصر لأول الفتح فسمَّوه «أبا الميامين».

وتداخل العرب والقبط ، فأسلم من القبط مَنْ أسلم وبقى على نصرانيته مَنْ بقى ، وبهذين الجناحين طارت مصر عبر التاريخ..

سلمت مصر . وسلم الجناحان !

***

وبعد ، فقد طال الحديث ...

وتخطَّينا ثورة سنة ١٩١٩م وما بعدها ، ونحن الآن نتجه اتجاهاً سريعاً نحو معاهدة ١٩٣٦م ، التى ختمت مجلداً ضخماً من مجلدات تاريخ مصر الطويل ..

وبدأ بعدها عصر مائع ، لم نكن ندرى خلاله إلى أين تسير مصر ..

لقد عاد مصطفى النحَّاس إلى مصر بعد توقيع المعاهدة . لم يشعر بأنه ـ عندما وقَّع المعاهدة ـ وضع نهاية لجهاده ، إذ لم تعد له وظيفة واضحة .. بل لم تعد للوفد كله وظيفة بعد ذلك ، ولهذا فقد أخذ ينحدر سريعاً ، حتى وصل إلى تناول ولاية الحكم من يد الإنجليز فى ٤ فبراير ١٩٤٤م..

كان النحَّاس قد تزوج السيدة زينب الوكيل قبيل توقيعه المعاهدة ودخل بذلك فى دور محزن من تاريخه .. فقد استسلم لحرمه ، وكانت ذات طموح طامح إلى المال والجاه..

وكان إلى جانبه مكرم عبيد ، على عهده دائماً من الإخلاص للوفد ورئيس الوفد.

وبدأ الصراع بين زينب الوكيل ومكرم عبيد .. صراع طويل مشئوم ، حكى بعض أطرافه محمد التابعى بأسلوبه الفريد فى بابه..

وفى يوم من الأيام أحس مكرم أنه يقف وحده أمام مصطفى النحَّاس وزينب الوكيل وأحمد حسنين والقصر والإنجليز !

قصة طويلة تنتظر من يكتبها .. قصة مكرم (ابن سعد) .. الذى كان يحفظ القرآن ويضمِّنه كلامه بمهارة تدعو إلى الإعجاب..

مكرم الذى قال فى دعاء ألقاه يوم ٩ أكتوبر١٩٤٤م ـ على إثر خروجه من السجن إلى الوزارة ـ : « اللهمَّ اجعلنا نحن المسلمين لك وللوطن أنصاراً ، ونحن النصارى لك وللوطن مسلمين.. ».

وأعتقد أن هذا دعاء جميل يصلح ختاماً لهذه الدراسة ..

وهو يذكِّرنا بما قاله جمال عبد الناصر للصحفى الفنزويلى :

«... هذا بلد المصريين ـ مسلمين ومسيحيين ـ من مئات السنين .. والحكومة ليس لها أن تصرِّح أو لا تصرِّح ببناء مساجد أو كنائس .. من أراد أن يبنى مسجداً فليبنِ مسجداً ، ومن أراد أن يبنى كنيسة فليبنِ كنيسة .. فالمسجد مصرى ، والكنيسة مصرية .. نحن نقول : الدين لله ، والوطن للجميع .. هذا أهم شعاراتنا . ألم تقرءوه أبداً!..».

***